سلسلة أبحاث كتابية II

تأليف : برنار راي

يسوع الذي هو المسيح

تعريب : المطران جرجس القس موسى

بغداد 2007
بيبليا للنشر

صورة الغلاف

القيامة

منمنمة سريانية من القرن ١٣ (مخطوطة رقم ٧١٧٠ ورقة ١٥٦ في المتحف البريطاني)

يسوع الذي هو المسيح

(الله يتخذ له وجهاً)

تأليف: برنار راي

يسوع الذي هو المسيح
(الله يتخذ له وجهاً)

تعريب
المطران جرجس القس موسى

منشورات مركز الدراسات الكتابية - الموصل
مطبعة الديوان
٢٠٠٧

صدر هذا الكتاب بالفرنسية

تحت العنوان التالي:

Bernard REY:
JESUS LE CHRIST
Le Centurion, Ed. Paulines
La Croix-L'Evénement
Paris 1988

كلمة الناشر

"إن كتابة (سيرة يسوع) التي تغنينا عن قراءة الأناجيل هي محاولة فاشلة! مثل هذه المحاولات تقودنا إلى بناء محدود يضع جانبا ما لأجله كتبت الأناجيل"! قالها البيبلي الكبير جان ديلورم في معرض الحديث عن الصفة التاريخية للأناجيل التي تعتمد حياة الكنيسة وخبرتها الإيمانية، وقد كانت في أصل الأناجيل، إذ أعطت حدث يسوع الناصري كل معانيه، وأضفت عليه نظرتها، لا بل أوّنته في ضوء القيامة...

"أن نعرف يسوع، لا يعني فقط أن نعرف سيرة يسوع"! وهذا الكتاب ليس سيرة حياة يسوع البتة؛ ومن النافل أن نتكلم عن "سيرة" ليسوع! والكتب التي تروي سيرته لم تعد تستهوي أحدا قط، بل أصبح الثقل كله باتجاه الكشف عن ملامح ليسوع كما رشحت وترشح من فم الشهود الذين يعلنون بشرى، ومن أقلام الذين دوّنوا شهادات حية لم تكن أبدا ريبورتاجات أو

تحقيقات... ولا أخال أن أحدا اليوم يتمنى لو كانت له عن يسوع صور أو تسجيلات لأقواله... فلكانت حجّمت شخصيته وصنّفته في عداد الحكماء والفلاسفة، أو أغلقت عليه مع سائر الأبرار والصديقين...

الكتاب الذي يزفه مركز الدراسات الكتابية هو من قبيل تلك المحاولات اللاهوتية البيبلية الجادة التي تكشف ما وراء لقب "المسيح" المسند إلى يسوع. انه كتاب عن يسوع الذي هو المسيح، مع كل ما ينطوي على هذا اللقب من إيمان هو دعوة إلى لقاء حميم به وعلاقة وثيقة معه...وهكذا يسهم في الكشف عن شخصية يسوع، المسيح، ابن الله، في كل أبعادها!

وينضمّ كتاب الأب برنار راي هذا إلى سلسلة "أبحاث كتابية"، حاملا الرقم ١١، ليكون، مع ما سبقه من إصدارات، إسهاماً في "جعل كلمة الله المدوّنة سهلة المنال وعذبة المذاق"، سيما حين تكون الكلمة قد اتخذت وجها بشريا اسمه يسوع !

بيبليا للقدس

تقديم المعرب

"يسوع، الذي هو المسيح"

كتاب آخر بدأت في تعريبه منذ ١٩٩١ وتوقفت في الصفحة ٤٢ من المسودة. ودام التوقف سنوات عديدة إلى أن استأنفت الترجمة عام ٢٠٠٦، بشعور من نسي ديناً عليه لا بد أن يؤديه مهما طال الزمن. وكان الانتهاء من الترجمة في شتاء هذه السنة عينها ٢٠٠٦، أي بعد ١٥ عاما من البدء فيها. وكانت "الأوقات الضائعة" بين نشاط وآخر، هي التي التجأت إليها، من جديد، للعمل.

لماذا استأنفت عملاً باشرت به قبل خمسة عشر عاماً؟ -لأني توسمت فيه فائدة قائمة يمكن أن تغذي إيمان القراء وتكشف لهم كيف يستطلع التلميذ سر وجه الله الذي يتجلى للإنسان تدريجياً في شخص يسوع المسيح، الذي كان اسمه منذ مولده "الله معنا". وإذا كان الله معنا، لا يمكن أن يكون كذلك إلا بوجه إنساني، وبقلب إنساني، وبفهم إنساني.. ومن ذا الذي جسّد هذه الصورة المتعددة الأوجه في التاريخ أفضل من يسوع الذي هو المسيح!.

"من أنا في نظر الناس"؟

سؤال يسوع لتلاميذه.. سؤال طرحه عبر العصور منذ ألفي سنة.. وحاول المفكرون واللاهوتيون أن يجيبوا عليه انطلاقاً من العقل.. كما أجاب

المؤمنون البسطاء -على غرار الرسل ذاتهم في السابق- انطلاقا من القلب. فكان هتاف بطرس.. كما كان هتاف هؤلاء المؤمنين والمؤمنات، جيلا بعد جيل: إلى من نذهب وعندك كلام الحياة؟!

من أنت يا يسوع الناصري؟ ومن هو المسيح الذي هو أنت؟

يحاول هذا الكتاب أن يستعرض الخطوط العريضة لجواب البحث اللاهوتي المسند إلى الكتاب المقدس على هذه الأسئلة.. لا لمجرد أن يوثق الأجوبة اللاهوتية التي وردت عن كيفية التوفيق بين كلمتي "الله" و "الإنسان" عندما يتعلق الأمر بشخص يسوع الناصري ابن مريم، وإنما لكي يضعنا أيضا في سر العلاقة التي ربطت ملايين من الرجال والنساء، عبر الأجيال، وعبر مديات باتساع الكون، مع شخص قال أن الله أباه، وعاش كما قال، منذ ألفي سنة.. ولا زالوا يسكّنونه في القلب من حياتهم ووجدانهم.. ويعتبرونه اليوم أيضاً معلمهم وربهم ومخلّصهم.

ترى ما هذه الخبرة التي تتخطى الزمن.. فتصبح شهادة حية عبر الزمن؟!

"بشارة يسوع المسيح، ابن الله".. مطلع إنجيل مرقس، هذا، كان عنوان المؤتمر البيبلي العاشر الذي انعقد في لبنان في شهر كانون الثاني ٢٠٠٧، حيث حاول المحاضرون استكشاف أبعاد هذا التأكيد وتأثيراته على مجرى تاريخ الخلاص. ذلك أن هذا العنوان، على بساطة مظهره، يعبّر عن جوهر الإيمان المسيحي برمته، ويشكل محور البشرى الرسولية.. بما فيها من عنصر المفاجأة لسامعيها. هناك مفاجأتان حقا في الدعوة المسيحية: مفاجأة أن يكون يسوع الناصري هو المسيح ابن الله المنتظر، وأن يكون هو ذاته، بعد أن صلب ومات، قد قام حقا وترك القبر فارغا.. يندب فراغه!

سيحاول هذا الكتاب الإجابة على السؤال ببعده التاريخي، وبعده الخلاصي، وبعده الذاتي، أي المتصل بشخص يسوع التاريخي ويسوع الإيمان.. ليتركنا في النهاية مع قلبنا وإيماننا كيف يجيبان اليوم على سؤال يسوع: من أنا في نظرك أنت يا فلان، من أنا في نظرك أنت يا فلانة؟ ماذا أنا بالنسبة لكما، الآن وهنا؟

لقد حملت الطبعة الفرنسية للكتاب مراجع غير قليلة، ولئلا تثقل على القارىء العربي غير المتبحر تجاوزنا عدداً منها، واستبقينا الأهم لمن يريد العودة إلى نصوصها الأصلية، ودفعنا بها إلى آخر الكتاب كي يبقى المتن سهلا للهضم. وفي كل الأحوال لا تحمل المراجع التي احتفظنا بها في هذه الترجمة أرقامها الأصلية في النص الفرنسي.

نأمل أن نكون قد رفدنا الدراسات الكتابية والبحث اللاهوتي بمرجع جديد رصين يحفزنا إلى قراءة لاهوتية للنصوص الكتابية -وهي أصلا نصوص لاهوتية- والى تغذية إيماننا وحياتنا بها.

فإلى طلبة الدراسات الكتابية واللاهوتية في الموصل وفي العراق.. مرة أخرى.. أهدي ترجمتي هذه..

بقي أن أتوجه بالشكر الخالص إلى الأعزاء الذين ساعدوني في بعث هذا الكتاب إلى الوجود: في التنضيد الإلكتروني وتنقيحه وإخراجه، وفي طبعه.. والى مركز الدراسات الكتابية في الموصل لإدراجه في "سلسلة أبحاثه الكتابية".

المطران جرجس القس موسى

٢٠٠٧/٤/٨ (عيد القيامة)

مقدمة

"إننا على استعداد دائم لأن نردد عبارات تعلمناها غيباً عن الله الذي صار إنساناً. ولكننا، بصراحة، لم ندرك حتى الآن الغرابة التي تتضمنها المقاربة بين كلمتي "الله" و "الإنسان" عندما يتعلق الأمر بشخص يسوع الناصري[1].

ما هذه الأسطر إلا إشارة إلى الاتجاه الفكري الذي سيقود مسيرتنا في هذا الكتاب. فإننا نهدف، حقاً، صفحة بعد صفحة، إلى كشف النقاب عن الغرابة التي ينطوي عليها الإيمان المسيحي عندما يجمع ما بين هاتين الكلمتين، ألا وهما "إلـه" و "إنسان". ان يكون الله قد صار إنساناً، ان يكون قد اتخذ جسداً بشرياً: أليس في ذلك ما يثير التساؤل لدى معاصرينا؟ إذن، لم يعد من الممكن اليوم الاكتفاء بعبارات تعلمناها غيباً. ففي مجتمع متعلمن فَقَدَ جذوره المسيحية (المجتمع الغربي)، يبدو إيمان المسيحيين بيسوع الناصري فارغاً من معناه، ان لم نقل لا منطقياً. لذا وجب علينا استكشاف محتوى هذا الإيمان من جديد.

ان إيمان المسيحيين يمكن إيجازه بالعبارة التي تشكل العنوان الثانوي للكتاب الذي بين يدي القارئ، وهي "الله يتخذ له وجهاً" في شخص يسوع الناصري. ولتبيان ما في هذا الإعلان من غرابة حقيقية، نلجأ إلى اختبار عملي بسيط وهو ان نلقي نظرة على الطريقة التي يتكلم الناس بها عن يسوع، سواء ممن هم حوالينا في عفوية اللغة اليومية، أم عبر وسائل التعبير المتقدمة كالأدب أو السينما. وبامكاننا ان

نطرح السؤال ذاته الذي طرحه المسيح نفسه: "من أنا في نظر النـــاس؟" (مـــر ٨: ٢٧). ان الدراسات والاستطلاعات الجديرة بان تقدم لنا جواباً عصرياً لهذا السؤال ليست بقليلة، فلنستعرض بعض خطوطها.

من أنا في نظر الناس؟

في الآونة الأخيرة ظهرت سلسلة دراسية جديدة بعنوان "يـــسوع منـــذ يسوع"، تطمح لأن تعطي في ٢٠ مجلداً الصور المختلفة التي عكست وجه يـــسوع عبر التاريخ. فلقد تعددت هذه الصور، فعلاً، في غضون عشرين قرناً منذ مـــيلاد يسوع. القرن ١٩ وحده يقدم لنا تارة "يسوعاً رومنطيقياً"، وطوراً "يسوعاً ثورياً وداعية عنف"، بل حتى "يسوعاً شيوعياً"، و "يـــسوعاً يتـــأرجح بـــين العـــذاب والعذوبة". فكل حقبة تاريخية تركت بصماتها الخاصة في "صور" يسوع، صـــور تختلف عن بعضها البعض إلى درجة يحق لنا ان نتساءل: ترى هل ينظر رســـاموها حقاً إلى النموذج ذاته. مهما يكن من أمر، فإن هذه الصور بعيدة كل البعد عـــن جوهر الإيمان المسيحي في أغلب الأحيان.

اختبار آخر نستقيه من عالم السينما: ان "وجه المسيح على الشاشة" ليس أقل تعرضاً للاختلاف عما هو عليه في الأدب. فلغة السينما، وهي لغـــة صـــعبة ومعقدة، تحركها تارة رغبة قاسية في نزع هالة القدسية عن وجه يـــسوع، وتميـــل طوراً إلى سبر سر يسوع، أو على الأقل إلى دعوة المشاهد إلى استقراء شخـــصيته. وبين "يسوع النجم السينمائي" (super star)، بطل أفلام رعاة البقـــر الـــذي تعرضه السينما الأمريكية، و "المشيح" الذي قدمه الإيطالي روسليني هنـــاك بـــون شاسع. فعندما يصور المخرج الإيطالي يسوعاً بسيطاً يعمل نجاراً، أو يسوعاً قريبـــاً

من جماعته في أوضاعها الوضيعة، فهو إنما يدعونا إلى تجاوز هذه الصورة إلى بُعد آخر في شخصية يسوع، هو بُعد سره الذاتي، هذا البُعد الذي يختفي تماماً إذا نظرت إلى يسوع "كنجم سينمائي". ولكن يسوع السينما ليس، في غالب الأحيان، سوى انعكاس لذهنية حقبة معينة. غير ان السينما، في حضارة تعتمد الصورة، كحضارتنا المعاصرة، قد تكون أكثر الوسائل التي يلجأ إليها معاصرونا للدخول في صلة مع يسوع. لذا لا مناص للمسيحي من أن ينتبه إلى ما تعرضه الشاشة.

ولعل أكثر الاختبارات دلالة هو الكشف عن الصورة التي ترسمها البدع ليسوع: يسوع على هامش الكنيسة، تتلون صورته في هذه البدع بألوان قوس قزح لتنوعها اللامحدود. فلقد لاحظ جان فيرنيت في دراسته حول "النزعة الدينية الجديدة" التي تظهر في هذه البدع أن وجه يسوع يتعرض لنوع من التمزق في اتجاهين، وفقاً للأفكار التي تتبناها هذه البدع. فتلك التي تستقي أصولها من ينابيع الروحانية الشرقية تطلق على يسوع تسميات مثل مسيح مسيحاني (من دون ال التعريف)؛ مريد؛ معلم؛ مربي؛ دليل. ان يسوع هذا، الذي لا يبدو أكثر من أحد معلمي الحكمة الكثر، يفقد خصوصية هويته الإلهية. وهناك تيارات دينية أخرى تعود في جذورها، إلى حد ما، إلى الإرث اليهودي-المسيحي المشترك، فتشدد في نظرتها إلى يسوع على كونه مخلصاً، وابن الله، والمسيح، والرب...الخ. فبذلك تتعرض لنسيان إنسانيته. ان هذه البدع تفضح تجربة تهددنا جميعاً، ألا وهي تجزئة وجه يسوع، بحيث لا نتوقف إلا عند زاوية واحدة منه هي إنسانيته فقط أو لاهوته فقط.

أخيراً هناك اختبار آخر وهو استطلاعات الرأي: عندما يسأل الفرنسيون، مثلاً، عن موضوع إيمانهم، سرعان ما تبدو الصورة مشوشة. فلقد أوضح

استطلاع[٢] ان ٦٤% من الفرنسيين يؤمنون أن "يسوع المسيح" هو ابن الله. والأغرب هو ان ٧٢% فقط من الذين يعلنون انتماءهم الكاثوليكي، يعترفون بأن "يسوع" هو ابن الله، بينما ينكر ذلك ١١%، و ١٧% لا يصرحون برأيهم. فلقد عكس الاستطلاع ان يسوع هو مجرد حكيم، بالنسبة للبعض، أو حكيم من النوع الممتاز يعلم شرعة أدبية، وبالنسبة لغيرهم هو مبشر بكلام الله. أما لآخرين فهو إنسان واهم، ولغيرهم نبي، وأبن نجار...الخ. في كل الأحوال، إذا كانت "صورة يسوع" أكثر صفاء وقبولاً في الرأي العام من صورة الكنيسة، فهذه الصورة تبقى مع ذلك غامضة.

ولكن من أنا في نظركم أنتم؟

ان هذه المؤشرات عن الصورة التي يرسمها الرأي العام ليسوع تحفزنا لأن نستكشف من جديد ماذا يؤكده الخطاب المسيحي ذاته عن يسوع المسيح.

ان ما لاشك فيه هو ان أجيالاً من الرجال والنساء قد رأوا منذ ظهور هذا "الإنسان المدعو يسوع" في التاريخ، انه "ابن الله"، وان كل ما يتعلق بالإيمان قد ورد في الإنجيل، ونقلته المجامع الكنسية، وعكسته الشهادات التي جاءتنا منهما.

أما الأسئلة التي تراودنا عنه، فلن نجد أجوبة نظرية عنها في هذا الكتاب، إنما سيكشف لنا سياق الحديث عن الطرق التي سلكها البحث اللاهوتي حول المسيح، وسياق تدرجها عبر التاريخ.

للإطلاع على المراحل التي ستتضمنها هذه المسيرة، ولتكوين نظرة شاملة عن الموضوع، نقترح ان نبتدئ بقراءة العبارات الأولى من إنجيل مرقس الذي يعتبر

أقدم الأناجيل. فمرقس يقودنا مباشرة إلى منبع الشهادة الرسولية بالعنوان الـــذي يعطيه لإنجيله:

بشارة يسوع المسيح ابن الله (مر ١: ١)

يتضمن هذا العنوان البسيط لوحده جوهر الإيمان، ألا وهو البـــشارة، أو البشرى: هذه الكلمة وحدها، في مدخل الإنجيل، تنبئ بما يتضمنه الحـــدث مـــن مفاجأة، ونستشف فيها ثلاثة أبعاد: البعد التاريخي، البعد الخلاصي، والبعد الذاتي. **البعد التاريخي** لهذه البشرى هو في كونها تخص **يسوع**، الإنسان المنتمـــي، الـــذي يحمل اسماً يهودياً، وذووه معروفون في المجتمع، وقد عاش في مكان وزمان ضـــمن التاريخ. ولكن الحديث عن هذا الإنسان لا يمكن ان يقتصر على وضعه الإنساني، ولا أن يكون الجانب الوحيد لفهمه. الإيمان هو الذي يدفعنا إلى أبعد من ذلك.

يضيف إنجيل مرقس نعتاً ثانياً لاسم يسوع وهو "المسيح"، وتعني كلمـــة "المسيح" (xpistos) باليونانية "الممسوح"، و "مشيحا" بالعبرية والـــسريانية، أي "المدهون بالزيت". فاسم "المسيح" الذي يُشير إلى الزيت الذي كان يمسح به الملوك في إسرائيل، يقدم يسوع بصفته **المسيح** الذي يرسله الله لخلاص شـــعبه وإرســـاء ملكه. لذا كان اسم "يسوع المسيح" في حد ذاته برنامجاً. فحين نقول بان يـــسوع هو المسيح، نعترف بأنه ذاك "المنتظر" الذي تاق إسرائيل إلى مجيئه، والذي يتيح له، أي لإسرائيل، ان يحقق دعوته. وما هذه الدعوة سوى إعلان اسم الله بين جميـــع الشعوب. هكذا يصبح اسم "يسوع المسيح" في حد ذاته بشرى ســـارة للعـــالم، وبذلك يبرز **البُعد الخلاصي** لهذا الاسم، أي بُعد الطاقة الخلاصية، أو الفدائية التي يتضمنها، بحسب تعبير اللاهوتيين.

ولكن العجب العجاب الذي نتوقف لديه، والذي يدفعنا في الوقت عينه إلى تحقيق خطوة جديدة إلى أمام هو السؤال التالي: كيف يسع تاريخ **إنسان واحد** ان يحمل خلاص الله إلى كل البشرية؟ ان الجواب المسيحي لهذا السؤال هو جواب إيماني. فالإيمان وحده هو الذي يعترف أن الله يتدخل في تاريخنا عن طريق هذا الإنسان يسوع. وإذا ما قلنا بان يسوع هو ابن الله، فإنما نتكلم عن كيان يسوع بالذات. بتعبير آخر، إننا نؤكد أن الإنسان يسوع، ليس هو مرسل الله للخلاص حسب، بل هو نفسه الله. لذا، ثمة **بعد ذاتي**، لكل كلمة تقال عن يسوع المسيح، أي انها تفصح عن جوانب من شخصية يسوع المسيح وهويته، من حيث هو هبة الله ذاته لنا، وليس مجرد جسر ناقل للخلاص.

هناك مسالك مختلفة للبلوغ إلى هدفنا، ولكننا سنتدرج في الكشف عن هذه الأبعاد الثلاثة بإتباع مسيرة إيمان المسيحيين عبر العصور. وإذا كانت هذه الأبعاد مترابطة في ما بينها، فكل منها يعكس جانباً معيناً من وجه يسوع. وسيكون بحثنا على النحو التالي:

١- سيكون **البعد التاريخي** مرحلتنا الأولى. وبما ان إيمان المسيحيين يعتمد على إيمان الرسل، فسنبدأ بشهادتهم عن يسوع كما روتها الكتابات الرسولية (العهد الجديد)، وسنحاول الإجابة على السؤال التالي: ما هي المعابر التي أوصلت التلاميذ إلى الاعتقاد بان معلمهم القتيل، قد عاد حياً من جديد؟ فإذا كانت خبرتهم الشخصية تشكل قاعدة الانطلاق للمسيحية، فمن المهم جداً ان نولي انتباهنا، في قسم أول، إلى خبرتهم الفصحية التي قادتهم إلى اكتشاف مجد الله على وجه معلمهم الناهض من بين الأموات.

٢- في مرحلة ثانية، ننضم إلى المسيحيين الأولين الذين اكتشفوا **البُعد الذاتي** ليسوع، إذ عرفوا فيه شخص الابن الأزلي لله. فلقد أعطى سر الفصح للتلاميذ حقاً ان يعيشوا خبرة عميقة للخلاص، خبرة كشفت لهم عن دور يسوع الفريد والحاسم في مخطط الله. وهذه الخبرة ذاتها هي التي قادت آباء الكنيسة، ومن ثم قادت أبحاث الشهود الكبار للتقليد اللاهوتي حتى يومنا هذا، كلما أرادوا إلقاء الضوء على هوية يسوع السرية. فجميعهم يشهدون للإيمان ذاته الذي يتلخّص في العبارة التالية: ان شخص يسوع ذاته هو "صورة الله اللامنظور" (قولس ١: ١٥).

٣- أما مرحلتنا الثالثة فستعالج قضية الخلاص الذي حققه الله في يسوع المسيح، وهذا ما دعوناه **بالبعد الخلاصي**. في هذه الدراسة سنتعمق في فهم معنى البشرى السارة الخلاصية الموجهة إلينا. أجل، لفهم معنى هذا الخلاص كان يمكن ان ننطلق من مفردات بحثنا الإنساني ذاتها. ولكننا فضلنا الانطلاق من الدرب الذي اختاره الله، وهو درب لا يخلو من عناصر التناقض في مفاهيمنا البشرية. أما أوجه هذا التناقض فهي ان درب الحياة يمر بالموت على الصليب، "عثرة لليهود، وجهالة للأمم"، كما سيقول مار بولس (١قور ١: ٢٣). سيتحتم علينا في هذه المرحلة توضيح فكرة الفداء التي طغت على إرثنا الثقافي المسيحي، بصورة خاصة، والتوقف لدى المعنى الذي تحمله صورة المصلوب. وسنختم، من ثم، بالسؤال الحتمي التالي: ترى من هو الله حقاً لكي يكشف عن ذاته من خلال هذه الميتة، ميتة الصليب؟

(١)

"وقد رأينا مجده"

الخبرة الفصحية للرسل

والكلمة صار جسداً
وحل فينا
وقد رأينا مجده"
(يوحنا ١: ١٤)

"من هو يسوع المسيح بالنسبة لي؟"

قبل أن يتغلغل القارئ في النهج المقترح، ليجازف بالإجابة على هذا السؤال انطلاقاً من خبرته الشخصية. وهكذا سيكون في حوزته أول إقرار إيماني، جدير بأن يوسع حدود تفكيره ويُصحح مساره تدريجياً كلما تقدم في البحث (أنظر الملحق رقم ١). ولكن النهج الذي نقترحه على القارئ هنا ليس الخبرة الشخصية، بل السير في مسالك الكتب المقدسة ذاتها، لكي يفتح الباحث أذنيه وينصت إلى تلاميذ يسوع، فيتلقى شهادتهم حول القائم من بين الأموات، ويتبنى القراءة التي فسروا بها، هم أنفسهم، خبرتهم في إتباع خطى يسوع الناصري.

لقد تفجر إيماننا يوم الفصح بهتاف فرح عارم: لقد قام المسيح!

ترى ماذا حدث لكي يندفع تلامذة نبي الناصرة ويعلنوا أن معلمهم حي إلى الأبد، وأن مواعيد الله كافة تحققت به؟: "المسيح قام!". إننا، بسماعنا هذا الإعلان الفصحي وبانقيادنا لفحواه، سنفهم كيف ولد إيمان الرسل. ولكن جذور هذا الإيمان تمتد بعيداً في تاريخ إسرائيل -كما سنبيّن ذلك لاحقاً-. ان ما نودّ استيضاحه بنوع خاص هنا، هو المراحل الكبرى لمصاحبة التلاميذ يسوع معلمهم، وكيفية التقاطنا عناصر رسالتهم الموجهة إلى مسيحيي جميع الأزمان.

ان إعلان قيامة يسوع يتخذ صيغ تعبيرية عديدة في العهد الجديد، منها: بلاغات إيمانية، قصص الترائيات، طرح مدعوم بالبراهين، كما في الرسالة إلى أهل

قورنثية (١قور ١٥). أما الصيغة الأكثر شيوعاً في هذا الإعلان فهي الخطاب التبشيري، ويدعى أيضاً بعبارة "كريغما" اليونانية (kerygma) ومعناها "المناداة". وقد أخذ القاموس الديني هذه المفردة عن الاستخدام المدني، وكانت تشير إلى عملية إعلان الأخبار الرسمية هتافاً في المدينة. ففي سفر أعمال الرسل نقرأ ستة خطابات من هذا النوع: خمسة منها لبطرس (٢: ١٤-٣٩؛ ٣: ١٣-٢٦؛ ٤: ٩-١٢؛ ٥: ٣٠-٣٢؛ ١٠: ٣٤-٤٣)، وواحد لبولس (١٣: ١٦-٤١). وينقل لوقا هذه الخطابات في إطار إنشائي يسهل على القارئ اكتشاف تركيبته البنيوية من خلال الرسم المرافق التالي:

صعود الرب إلى مجده

منمنمة سريانية من القرن ١٣ (مخطوطة رقم ٧١٧٠ ورقة ١٩٧ في المتحف البريطاني)

التركيبة البنيوية للإعلان الفصحي

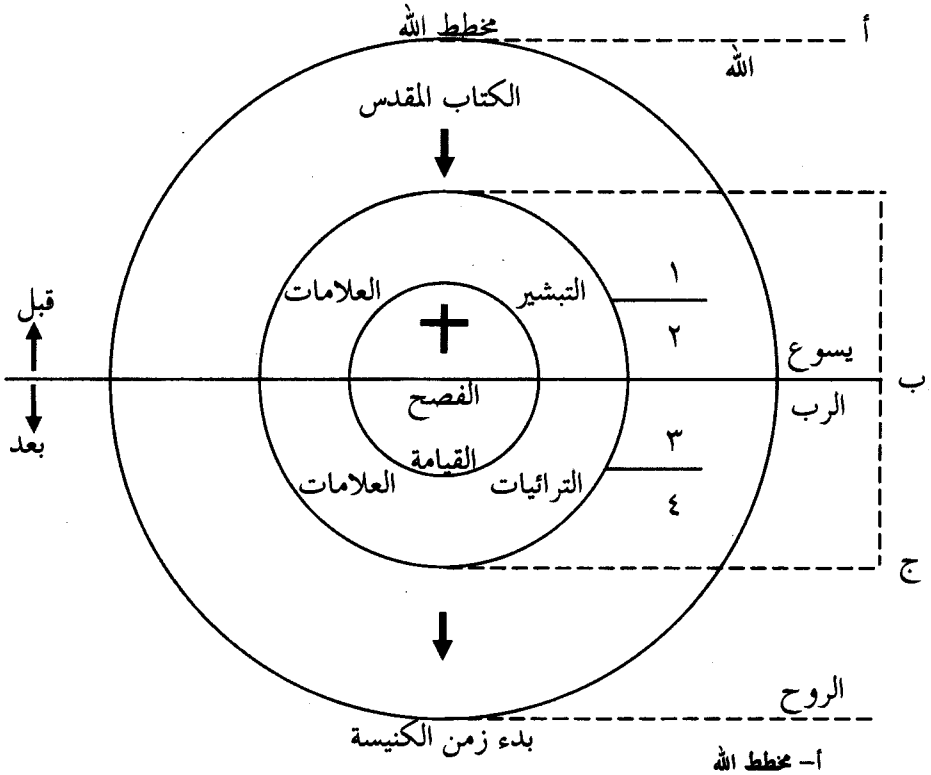

أ- مخطط الله

"الأنبياء يشهدون ليسوع"

ب- "حدث يسوع"

١- ابتدأ في الجليل

٢- أسلم للموت: "اقتطعوه"

٣- القيامة: "الله أقامه"

"الله أقامه رباً ومخلصاً"

٤- الشهادة: "ونحن شهود له"

"ولقد أكلنا وشربنا معه بعد قيامته".

ج- زمن الروح قد ابتدأ

الغفران أعطي باسم يسوع

حل الروح

(طبّق هذا المخطط على نصوص الخطابات الواردة في كتاب أعمال الرسل في الفصل ٢ و ١٠ و ١٣).

- في قلب الرسالة هناك إعلان قيامة الذي مات صلباً. وحول هذا الإعلان الأساسي (الدائرة المركزية في الرسم) تدور بعض سمات رسالة يسوع، والعلامات التي رافقت قيامته (الدائرة الوسطى).

- عمل الله الذي حقق النصر على الموت بيسوع، يأخذ موقعه في تاريخ الخلاص، ويظهر ذلك من خلال: الإشارة إلى مخطط الله؛ وذكر النصوص الكتابية التي تكشف عن ان القيامة هي تحقيق لهذا المخطط، وإنها بداية الأزمنة الأخيرة، أزمنة الروح. وهكذا فان الحدث الفصحي، أي قيامة المسيح، يمتد إلى مجمل حياة يسوع، ليستقر في دائرة أوسع بكثير تندرج في مخطط الخلقة والخلاص الذي رسمه الله.

ونلحق هذه القراءة الأولى للرسم بحسب المحور الأفقي الذي يكشف عن البُعد التاريخي، بقراءة أخرى عمودية، من فوق إلى تحت (أ- ب- ج)، لاستكشاف البُعد الثالوثي للحدث (الله- يسوع الرب- الروح). وهكذا، بوسعنا رسم النهج الذي سنتبعه من خلال هذه النظرة الأولى على التركيبة البنيوية للإعلان الفصحي.

١. زمن الوعود. في القيامة بدأ الاعتراف بيسوع مسيحاً، لأن وعود الله لشعبه قد تحققت فيه. فالإيمان الفصحي يمّد جذوره، إذن، في رجاء بلغ قمته في انتظار القيامة من بين الأموات. ولقد "تجسد" هذا الرجاء في شخص يسوع، بكل ما تعنيه كلمة "التجسد"، وسنبحث لاحقاً في مصدر هذا الرجاء.

٢. زمن يسوع. يرتبط الإيمان الفصحي بالعمل الذي حققه يسوع الناصري بصفته ذاك الذي جاء "بالبشرى الجديدة للسلام"، كما اعترف به التلاميذ (أعمال ١٠: ٣٦). ولقد وَسَمَ هذا الإيمان بعمقٍ تلاميذَه الذين عاشوا مع

المعلم أشهراً عديدة، والدليل هذا الذهول الذي اعتراهم غداة موته (لوقا ٢٤: ١٩-٢٤). ان المكانة التي تحتلها النصوص الإنجيلية في حياة الكنيسة تشهد على الأهمية الخاصة التي تمثلها العودة إلى حياة يسوع لفهم هوية الناهض من بين الأموات فهماً صحيحاً.

٣. معرفة المصلوب. لقد ساعد الانتظار الذي حرك قلوب التلاميذ، والذي كانوا يشاركون شعبهم به، من حيث هم أبناء إسرائيل، ساعدهم على فهم العناصر الأساسية للخبرة الفصحية، وذلك إضافة إلى احتكاكهم الشخصي بيسوع أثناء حياته الأرضية.

٤. البشرى الفصحية. بعد تحليل الخبرة الفصحية لدى الرسل، سيتاح لنا الاحاطة بالبشرى الفصحية، أي رسالة القيامة التي من دونها، على حد تعبير بولس، "كان إيماننا باطلاً وكرازتنا باطلة" (١قور ١٥: ١٤).

أولاً: زمن الوعود

لو أردنا استعراض زمن الوعود كاملاً، للزمنا استعراض العهد القديم بأكمله. وبما اننا مضطرون للاختيار، فسنركز على معطيات رئيسية ثلاث، هي: الخطوط الأساسية لإيمان إسرائيل، الإيمان بقيامة الأموات، أحوال الشعب في عهد يسوع.

١. اسمع يا إسرائيل

ان هاتين الكلمتين "اسمع يا إسرائيل" تستهلان الصلاة التي ينبغي على كل يهودي تقي أن يرددها عدة مرات في النهار :"شماع" (تثنية ٦: ٤- ٩؛ ١١: ١٣-

٢١؛ عدد ١٥: ٣٧- ٤١). في هذه الصلاة تمتزج روح الشعب المختار كلها، هذا الشعب الذي يشعر في أعماقه بأنه مختار، إذن مدعو من قبل الله. فإسرائيل نشأ عن عهد قطعه الله معه عندما انتشله من العبودية ليجعل منه شعب أبناء. ولقد أعطى الله كلمته (الشريعة) ليكشف عن إرادته من خلالها، وأعطاه أرضا ليستثمرها، وهيكلا يلتقي فيه مع إلهه. ان رجاء إسرائيل كله نما من هذه المبادرة الإلهية ومن قصة الحب هذه (هو ٢) التي تُستَثْنى الشعوبُ الأخرى منها. وللإجابة على هذه الدعوة، كان على إسرائيل أن "يسمع" لألهه، ويشهد لحبه أمام سائر الشعوب (تكوين ١٢: ٢- ٣)[٣].

فتاريخ إسرائيل يكتسب معناه عندما يتجه نحو تحقيق أهدافه. غير أن رجاء هذا الشعب خضع لتطورات عدة عبر العصور. ففي مملكة يهوذا (في الجنوب) غدت السلالة الملكية الأداة التي استخدمها الله لتحقيق مخططه. إلا أن خيانة الملوك، وخراب البلاد، وجلاء الشعب، كل هذه الأمور أودت إلى انتظار مسيح يرسله الله نفسه إلى شعبه، وتوقع عالم جديد، لأن الخلاص لا يمكن أن يأتي من هذا وادي الدموع. وكان الناس ينتظرون أيضاً شاهدا أخيرا من الله، على شاكلة موسى والأنبياء، ليحقق النبوة التي أعلنها موسى: "نبيا من بينكم، من إخوتك، مثلي يقيم لك الرب إلهك، له تسمعون" (تثنية ١٨: ١٥). أجل، لقد كان الناس في إسرائيل ينتظرون أن يكشف الله عن ذاته في آخر الأزمان ويظهر مجده، ويمنح الروح للشعب، ويحلّ في قلب كل إنسان.

٢. "يفتدي من الهوّة حياتك" (مز ١٠٣: ٤)

لم يتوصل شعب الله إلى الأيمان بقيامة الموتى إلا في وقت متأخر، إذ بقيت حدود تفكير الإسرائيلي في الحياة مع الله ردحاً طويلاً من الزمن، متوقفة على الحياة

الأرضية. ألم يهتف الملك حزقيا (٧١٦- ٦٨٧) وهو على حافة الموت قائلا: "لن أرى الله بعد في أرض الأحياء"؟ (اشعيا ٣٨: ١١). في ذلك إشارة إلى أن اليهود لم يكونوا يؤمنون بقيامة شخصية من بين الأموات حتى نحو عام ٢٠٠ ق.م. وفي زمن يسوع كان الصدوقيون –وهم حزب ينتمي إليه الرؤساء الدينيون– ينكرون الإيمان بالقيامة.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار المكانة التي تحتلها القيامة لدى يسوع ولدى المسيحيين، يكون من الأهمية بمكان ان نبحث كيف نشأ هذا الإيمان[٤].

هناك خبرتان إنسانيتان دفعتا بالمؤمنين إلى قبول هذه الفكرة، وهما:

– الخبرة الجماعية الناجمة عن العودة من الجلاء (القرن ٦): فمن شعب مائت، مشتت، منفي، بعيد عن أرضهِ، ومن دون ملك ولا هيكل، يجعل الله شعباً حياً، من جديد، عائداً إلى بلاده ليسجد فيها لإلهه ويحيا بحسب شرائعه. ولعل أجمل تعبير عن هذا الإيمان هو الذي ورد في رؤيا حزقيال الرائعة حول العظام اليابسة (حزقيال ٣٧)، كيف دبّت الحياة فيها بنفحة من الله.

– تليها خبرة الاضطهادات التي نالت الشعب في عهد المقابيين في القرن الثاني قبل المسيح. فلقد ساد الاعتقاد آنذاك ان الصدّيق الذي يموت شهيداً من أجل أمانته لله، لا يمكن أن ينفصل عن إلهه يوم موته (٢ مقابيين ٧ ودانيال ١٢: ٢).

وهكذا ظهرت فكرة مفادها ان الصديق يحيا بعد موته من جديد، ويعتمد هذا الإيمان أساساً على شخص الله بوصفه الطرف الآخر للعهد المبرم. ومعلوم ان الساميين لا ينظرون إلى الإنسان كمركّب من نفس وجسد، وان النفس ستبقى حية بعد زوال الجسد. فإذا ما توصلوا إلى الإيمان بالقيامة، فإنما ذلك بسبب عهد الله ذاته: فإذا كان الله إلهاً حياً وعادلاً، لا يسعه إلا ان يعيد الحياة للذين استشهدوا في سبيله. وهكذا يرتبط الإيمان بالقيامة في العلاقة الحاضرة والحية مع الله منذ هذه

الأرض. لذا كانت القيامة أكثر من انتصار على الموت: إنها انتصار على الظلم. وهذا الجانب مهم لفهم شهادة التلاميذ عن قيامة يسوع.

٣. زمن موسوم بالأزمة

في عهد يسوع تبدو السموات مغلقة: فالأنبياء صمتت أصواتهم منذ زمن بعيد، والروح لم يَعُدْ يَعْتَلِنْ، وصار اليهود الأتقياء يلتقون بإلههم عبر التوراة وممارسة الوصايا. وكانت فلسطين في غليان، بالرغم من رزوحها تحت نير الاحتلال الروماني. وكان الحماس الديني لدى بعض طبقات المجتمع بمثابة الزيت الذي يلهب نار الطموحات التحررية: الله آتٍ، بل يوشك أن يظهر فجأة مسيح محارب، ولربما مسيحان في آنٍ واحد، وهكذا سيطهّر الله أرضه بنفسه: هذا كان انتظار الأسينيين والفريسيين والمعمدانيين، كلٌ بحسب السيناريو الذي يتصوّره لهذا المجيء.

في جو هذا الانتظار، وفي زمن هذه الأزمة ظهر يسوع.

ثانياً: زمن يسوع

لقد ظهر يسوع كواحد من أبناء إسرائيل، من الجليل، هذه الأرض التي يحتقرها يهود أورشليم بسبب الحضور الوثني فيها. وظهر في ظل يوحنا المعمدان الذي يستقطب الجماهير بإعلانه دينونة الله، فينعش بذلك آمال إسرائيل الكبرى. وتبدو رسالة المعمدان في غاية البساطة، إذ يدعو إلى العماد لنيل غفران الخطايا (مرقس ١: ٤-٨)، وذلك من دون الالتزام بتقديم الذبائح الباهظة، كما يشترط الهيكل. يظهر يسوع إذن في بيئة تاريخية كان الرجاء بنهاية الأزمنة قوياً فيها.

ولكن يسوع غيّر أسلوبه، بعد مزاولة العماد ردحاً من الزمن، فبينما كان يوحنا يجتذب الجماهير خارج المدن نحو الصحراء، صار يسوع ينتقل من مدينة إلى مدينة يكرز فيها بقرب مجيء الله.

١. ملكوت الله بينكم

لقد نادى يسوع بظهور ملكوت الله كما فعل يوحنا المعمدان، ولكنه عوض ان يكرز بإله مرعب، كشف عن وجه إله رحمان، يهتم بالفقراء والهامشيين، ويبحث عما هو ضائع ولا أمل فيه. هكذا كان زمن يسوع زمناً جديداً بصورة جذرية تماماً، مما جعل يوحنا يرتبك في سجنه (متى ١١: ٢-٦) ويطلب إيضاحات. فأفهمه يسوع ان الوعود النبوية قد أصبحت واقعاً ملموساً (لوقا ٤: ١٦-٢١): العميان يبصرون، الأسرى يطلقون أحراراً، .... الخ. فيسوع، بصفته شاهداً لمجيء إله العهد والمصالحة، ها هو يُعدّ القلوب لاستقبال البشرى، ويقاوم كل ما من شأنه أن يفصل البشر عن الله، أو يفصلهم عن بعضهم البعض: هذه هي معاني رسالته، وهذا هو هدف معجزاته وأسلوب حياته.

• معجزات يسوع

ان المعجزات التي اجترحها يسوع لا تفرض رسالته فرضاً، بل تعبر عنها بصورة ملموسة (مرقس ٢: ٩-١١). لاشك ان الذهول يعترينا عندما نرى خصوم يسوع يوجهون إليه اللوم لعدم اجتراحه معجزات دامغة، ولكن يسوع يرفض التصرف لمجرد اجتراح الغرائب. فالطابع الذي يسم أعاجيب يسوع هو كونها علامات لعمل ملكوت الله، قبل أي شيء آخر. ففي يسوع نرى الله يحقق مواعيده كل مرة هرع إلى نجدة الفقراء، أو شفى المرضى، أو أعاد إلى حضن الجماعة كل هؤلاء الذين أبعدهم المرض عنها بسبب الموانع التي أقامتها الشريعة في وجههم.

ويدور الخلاص الذي تعطيه الأعجوبة حول الحاجات الإنسانية الأساسية، أي الغذاء والصحة والحياة، وفي ما خلا ذلك، ما المعجزة سوى علامة لمجيء ملكوت الله. ان الاهتمام الذي يوليه الله بهؤلاء الهامشيين من خلال الأعجوبة، ما هو إلا إشارة إلى قيام عالم " لا يبقى فيه للموت وجود، ولا للبكاء، ولا للصراخ، ولا للألم" (رؤيا ٢١: ٤).

• أسلوب حياة يسوع

كما كانت معجزات يسوع تجسد رسالته، كذلك أسلوب حياته. فعندما كان يتناول الطعام مع الخطأة، كان يعكس وجهاً إنسانياً للغفران الذي يمنحه الله. لقد كان الطعام، في عهد يسوع، مدعاة للتفرقة، لأن قواعد الطهارة لم تكن لتبيح تناول الطعام على مائدة واحدة مع أعضاء بعض الفرق المحسوبة نجسة. فيأتي يسوع ليجعل من مائدته مائدة المصالحة، لا مائدة الفصل. إنها مائدة مفتوحة، حتى لو اتهم صاحبها بأنه "أكول وشريب خمر" (متى ١١: ١٥)، وبتناوله الطعام مع الخطأة يشهد يسوع بأن المطرودين من موائد الناس هم ضيوف الله.

إننا نلاحظ هذا الاتجاه في اختيارات يسوع في اسلوب انتقائه تلاميذه أيضاً. ففي ذلك الزمان كان شراح التوراة هم الذين يختارون معلمي الشعب، أما يسوع فهو الذي يختار تلاميذه بنفسه، وبين صفوف هؤلاء توجد نساء أيضاً، خلافاً للتقاليد المرعية آنذاك. ويطالب يسوع تلاميذه، لا أن يتبعوه حسب، بل أن يتركوا كل شيء من أجله، ولا ينظروا إلى الوراء. وهكذا نرى من بين التلاميذ واحداً من أتباع الشريعة الأمناء (نثنائيل)، وآخر يهودياً من الأتقياء (سمعان الغيور)، وبعضاً من مؤيدي تيار العنف (يعقوب ويوحنا، ولربما يهوذا وبطرس)، وآخر من العشارين (متى) -ويعتبر العشارون آنذاك من صنف الخطأة-، ورجلاً يونانياً (فيلبس) من إحدى المدن الحدودية... وغيرهم. ولولا اختيار يسوع، لما

جمع هؤلاء الرجال قاسم مشترك يدفعهم إلى العيش معاً. هكذا نرى هذه الجماعة التي تضم أناساً متباينين جداً مدعوة لتكون علامة حية للمصالحة.

٢. ادعاءات يسوع:

ان رسالة يسوع ومعجزاته وطريقته في الحياة تثير الحماس وراءه، ولكنها تحرك مقاومة الفريسيين ورؤساء الدين أيضاً. ما السبب في هذا العداء؟ لاشك ان العداء ليس وليد عقلية ضيقة حسب، بل ينجم بالدرجة الأولى عن الادعاءات الغريبة التي استشفّوها في أحاديث النبي الناصري ومبادراته. فما يحياه ويعلنه يسوع يتصل مباشرة بالله، ونستدل ذلك من خلال ثلاث مناظرات أساسية، هي:

• علاقة يسوع بالخطأة

لنبدأ بالفريسيين والحكماء الذين كانوا ينظرون إلى يسوع نظرهم إلى رجل صدّيق ومستقيم: هؤلاء أنفسهم تشككهم علاقاته. فلقد استشفّوا لديه ادعاءً غريباً من خلال تعامله مع الناس، يُشتَمُّ منه ان حضوره بين الجماهير هو بمثابة حضور الله الذي يصالح الخطأة معه بمنحهم الغفران. ويسوع نفسه لم يَدَعْ مجالاً للشك في ذلك، إذ أعلن ان من يقاومه يقاوم الله، ومن يقبله يقبل الله. فالناس، بحسب أقواله، سيدانون وفقاً للموقف الذي يتخذونه منه (مرقس ٨: ٣٨). وهنا يطرح السؤال نفسه: ترى من يكون يسوع هذا ليربط مجيء الله وهبة غفرانه للبشر، بحضوره هو؟

ان مثل هذا الادعاء يقلّب كافة التصورات الدينية السابقة، والنهج الذي ينتهجه يسوع يُسقِط جميع الحلقات القائمة في العالم اليهودي لتأمين الصلة بين الإنسان والله، وفي مقدمتها التوراة والهيكل. فيبدو يسوع، في هذا الإطار، تمديداً حقيقياً لنظام الخلاص كما تخيله رجال الدين والمتدينون في ذلك الزمان.

• علاقة يسوع بالشريعة

في الواقع، لا يحمل يسوع أي شعور بالاحتقار تجاه الشريعة. أليست الشريعة هي التوراة المقدسة؟! لقد جاء لا ليبطلها، بل ليكملها. أما التوراة فكانت على صيغتين آنذاك: التوراة المكتوبة، وتتضمن الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس، والتوراة الشفهية المتناقلة عن طريق الحكماء، تحت اسم "تقليد القدماء" وتنسب هي أيضاً إلى موسى. ويضع يسوع أقواله على قدم المساواة مع هاتين التوراتين، بل فوق "تقاليد القدماء"، ويعني ذلك تفوقه على موسى نفسه. بهذا المعنى ينبغي ان نقرأ أحاديثه عندما يؤكد قائلاً: "قيل لكم كذا... أما أنا فأقول لكم"، وكذلك النصوص الأخرى التي تدعم سلطته (أنظر متى ٧: ٢٩).

وتجدر الإشارة هنا إلى ان موضوع سلطة يسوع ليس مجرد ملاحظة حول طباعه الشخصية، بل يحمل معنى دقيقاً، لاسيما بالنسبة إلى الفرد اليهودي. فحين يتكلم أحد المعلمين، يذكر مراجعه، أما يسوع فيتكلم بسلطته الخاصة. وعندما يعلن إرادة الله للناس، يعلنها باسمه الخاص، ولا يستند إلى التقليد الشفهي المتوارث. وهذا أمر لم يطق احتماله أولئك. فيسوع لا يضع نفسه بين الله والشعب كمفسّر للشريعة، وإنما هو نفسه يصبح شريعة ويطلب إلى الناس ان يتتلمذوا له، لأن الله سلم بيده كل سلطان (متى ١١: ٢٧-٣٠). هو نفسه يصبح "موضوع الإيمان"، وإياه ينبغي الإتّباع، لأنه "الطريق"، و "الحق"، و "الحياة"! فبهذه الحرية التي يتصرف بها يسوع يعلن عن "وعيه بحلول ملكوت الله السامي فيه وبواسطته".

• موقف يسوع من الهيكل

في هذا السياق عينه ننظر إلى موقف يسوع من الهيكل. فالهيكل رمز حضور الله وسط شعبه، وهو الموضع الذي فيه تقدم الذبائح لغفران الخطايا، وهو مركز الحج الذي يحتفل بصنائع الله العظمى التي أجراها في تاريخ إسرائيل. ان

يسوع يتردد على الهيكل، ويعلم في أروقته، ولكنه يسجل، في الوقت عينه، ابتعاده عنه وعن الكهنوت الذي يُمارَسُ فيه، إلى حد ما. لنقرأ، على سبيل المثال، مثل "السامري الصالح" (لوقا ١٠) حيث لا يظهر الكهنة واللاويون كنماذج يُحتَذى بها. لنقرأ كذلك حادثة طرد الباعة من الهيكل: فالكلمات التي تلفظ بها يسوع يومذاك ستكون السبب في إلقاء القبض عليه وإدانته (مرقس ١٤: ٥٣-٦٥).

ولكن موقف يسوع سيتخطى النقد الموجه إلى كهنوت أورشليم. أليس أن الأسينيين، هم أيضاً، كانوا يشاطرونه هذا النقد؟! أما يسوع فيضع حداً نهائياً لهذا الكهنوت، أليس هذا هو المعنى الذي يرشح من قراءة حادثة طرد الباعة من الهيكل؟! لنقرأ ماذا يكتب مرقس بهذا الصدد: "ولم يَدَعْ يسوع **حاملَ متاعٍ** يمّر من داخل الهيكل" (مرقس ١١: ١٦)، **والمتاع** المقصود هنا ما هو سوى الأدوات المستخدمة في الطقوس. فيكون المعنى المقصود، بحسب سياق الحديث، واضحاً أن "يسوع أبطل طقوس القرابين". وهكذا نستنتج ان يسوع في الهيكل يتصرف كصاحب الدار (لو ٢: ٤٦-٤٩)، ويضع نفسه فوق القوانين بإبطاله هذه الطقوس. لذا، من السهل تصور النتائج التي ستترتب على هذا التصرف.

فمن خلال هذا الموقف الناقد، يضع يسوع نفسه في مقام الهيكل، إذ يقدم نفسه كالذي يفتح الطريق إلى الله ويعلن عن غفرانه. بهذا المعنى أيضاً ينبغي ان نعيد قراءة النصوص التي تضع السامريين في الواجهة، هم الذين يناهضون اليهود في مسألة الهيكل بالذات. فيسوع يدعو السامرية، مثلاً، أن تفهم بان حضوره هو أهم من قضية موقع الهيكل (يوحنا ٤: ٢١-٢٤)، وأن هذا الحضور يجعل هذا الهيكل نافلاً. فلقد كان المسيحيون الأولون يفهمون، عندما يستعيدون قراءة هذه الأحداث، ان يسوع نفسه قد أصبح الهيكل الجديد الذي يؤمّن سكنى الله بين

البشر (يوحنا ١: ١٤؛ أفسس ٢...الخ). وهكذا يصبح يسوع، الذي هو هيكل الله الحي، "أعظم من سليمان" الذي بنى هيكل أورشليم (متى ١٢: ٤٢).

٣. من يكون يسوع، إذن؟

تشير الادعاءات التي نادى بها يسوع بوضوح إلى ان المسألة تتعلق بمجيء الله، ولكن هذا المجيء، بالرغم من كونه تحقيقاً لمواعيد الله، يقلب هذه المواعيد كلها رأساً على عقب، ويتجاوزها، إذ يبدو يسوع أكثر من مجرد شاهد لله، إنه ذاك الذي يحلّ الله فيه غفرانه، و لم يعد الهيكل موقع منح هذا الغفران، بل حيث يتواجد يسوع ويقصده الناس كل يوم هناك الغفران. ولقد اتسعت حدود العبادة والشريعة من حيّز جغرافي معيّن لتعانق الآخر دون تمييز، لأن هذا الآخر، أياً كان، يصبح قريباً لنا (لوقا ١٠: ٢٩-٣٧).

إن اقتحام حضور الله صفوف الناس بهذا الشكل لم يجب إلى انتظارات الجماهير لأول وهلة، لذا جابه يسوع عدم الفهم والرفض، وابتعدت عنه الجماهير التي كانت تتوقع تحرراً سياسياً بعد برهة من الحماس. حتى أسرته ساورها القلق من ان يكون قد اختلّ عقله. ولقد أصيب الفريسيون بالهلع من ادعاءات يسوع، إذ وضع نفسه ما بين الشريعة والله وعدوا ذلك كفراً. الصدوقيون أخذهم الهلع نفسه إذ صار يشكك في الهيكل، وهو مورد رزقهم.. أما الرؤساء فرأوا فيه فوضوياً يثير حفيظة المحتل الروماني، ويقوّض الحماية التي يلوذون بها من لدنه. بكلمة واحدة، يسوع يثير الرأي العام ضده.

حتى تلاميذه أنفسهم ليسوا متفقين كلهم معه. فبعضهم تركوه (يوحنا ٦: ٦٦)، وخانه أحدهم. أجل، لقد رأى فيه بطرس وآخرون المشيح المنتظر، واعترفوا أن أعماله هي من الله، وإنها تحرر الرازحين تحت نير العبودية (مرقس ٨: ٢٧-

٢٩). ولكن بطرس لازال يجهل إلى أي مدى تلزمه كلمته. إنه يرفض طريق الآلام الذي ينفتح أمام المسيح، وهو نفسه سينكر معلمه، لأنه رأى الطريق الذي اختاره يسوع غير لائق بشخص المشيح (مرقس ٨: ٣٢-٣٣؛ ١٤: ٦٦-٧٢). وهكذا نجد تلاميذه أنفسهم منقسمين حول شخصه. فمن تراه يكون، إذن؟ ماذا يقول هو نفسه عن ذاته؟ لاشك ان يسوع لم يبشر بذاته، ولا أعلن هويته بصورة قاطعة. لقد بشر بملكوت الله، وعرفه الناس من خلال أعماله (يوحنا ٥: ٣٦؛ ١٠: ٢٥-٣٧). غير ان ما كشفت هذه الأعمال يكاد لا يُصَدَّق، مما جعل معظم الناس ينغلقون على أنفسهم رافضين. أما هو فلم يرفض بعض نعوت مثل: "المعلم، النبي". ولما كان يقدم نفسه كرسول أخير لله، كان يدع المجال مفتوحاً ليرى الناس فيه ذلك النبي المنتظر في آخر الأزمان، الذي أنبأ به دانيال في ١٨: ١٥. ولكنه بدا أكثر من نبي، بحيث صار الاسم الأكثر كشفاً لشخصيته هو اسم "ابن الإنسان"، هذه الشخصية الغامضة التي يقدمها سفر دانيال (٧: ١٣-١٤)، والتي إليها يسلّم حكم الدينونة. ولقد دأب الإنجيليون على وضع هذا الاسم على شفاه يسوع كصفة أطلقها على نفسه هو ذاته. مهما يكن من أمر، يبدو مؤكداً ان يسوع لم يقل عن ذاته قط، وبصورة واضحة وقاطعة: "أنا المسيح، أنا ابن الإنسان، أنا ابن الله"، ولم يحصر شخصيته في أي نموذج من نماذج الماضي. وإذا ما حدّدناه في أحد النماذج السابقة، تعرضنا للبقاء خارج دائرة فهمه تماماً. ان هويته لن تنكشف تماماً إلا فيما بعد، عندما سينجز مصيره. ولكننا نتساءل، ترى لماذا يمتنع يسوع بشدة عن توضيح هويته؟ فنجيب: إذا رفض يسوع تحديد هويته، فلأنه يريد البقاء منفتحاً بكليته على صورة أخرى هي صورة الله الذي يدعوه "أبا" بنوع مميز وخاص (أبا – بابا) (مرقس ١٤: ٣٦). فبأسلوب عيش علاقته مع الآب في الصلاة، وفي علاقة الخدمة التي يمارسها تجاه الجميع، إنما يشهد لإله هو حب.

٤. رجاء يسوع

سيمارس يسوع هذه الخدمة الجذرية تجاه الله وتجاه البشر "حتى النهايـــة" (يوحنا ١٣: ١)، وسوف يحياها في الإيمان والرجاء، حتى عندما سيرفضه الجميع، ويسلمه أحد أصحابه، ويتركه الآب بحسب الدلائل الخارجية كلها. ولكن رجـــاء يسوع لن يخيب بالرغم من الفشل، وسيبقى وطيداً بقيامته "في اليوم الثالـــث"، أي في اليوم الذي فيه سيقيم الله جميع الصدّيقين، وهكذا يبقى يقينه راسخاً باستمرارية مشروعه بعد غيابه، كما تشهد كلماته وسلوكه في العشاء الأخير. وســـيموت في الإيمان أيضاً، كالصدّيق الذي يسلم ذاته بين يدي الله وينتظر منه كل شيء، بعد إذ يتركه الجميع، بالرغم من صمت هذا الإله.

ان نهايته تبدو نصراً لأعدائه. فلقد ألقي القبض عليه، وخضع للاستجواب في دعوى قضائية ملفقة لم تُتَّبع فيها حتى أصول المحكمة اليهوديـــة، ثم أحيـــل إلى السلطة الرومانية كفوضوي، وحُكِمَ عليه بالموت صلباً. وإننا نجد الأدلة الحقيقيـــة لإدانته في حيثيات موته. فلقد قضى المحفل اليهودي بأنه يستحق حكم الإعدام لأنه تطاول على الهيكل ووضع نفسه مقام الله، أما العلة الرسمية لإدانته، والتي وضـــعت على صليبه، فهي علة سياسية: لقد ادّعى الملوكية في عقر دار إمبراطورية قيـــصر! وهكذا جُرِّد يسوع حتى من معنى موته. لقد أراد أن يموت في أورشـــليم كـــنبي، شهادة لله الذي بشر بملكه، وها هو يصلب خارج المدينة، محكوماً عليه كفوضوي، ومائتاً كعبد بين فاعلي سوء.

لقد عاش يسوع رجاءه ضمن هذه الظروف، وانتهى في الفشل، غير انـــه ظل محتفظاً برجائه بالله حتى في وسط فشل رسالته. ولدى موته تلا صـــلاة البـــارّ المضطَهد (مزمور ٢٢)، مُعيداً بذلك كل رجاء العهد القديم. لقد كـــشف موتـــه

النقاب عن إنسان عاش الاستسلام لله حتى النهاية، في ثقة ورجاء وطيدين، كالأبرار الذين يراهنون بكافة قواهم على الله، طوال حياتهم كلها. ففي هذا الليل الدامس الذي زجّه فيه موته، يصبح يسوع قرباناً تاماً للآب.

غير ان الوحي لا يقف في هذا الحد.

ثالثا: معرفة المصلوب

أجل، ان مسيرة يسوع لا تتوقف عند موته الذي كان نصراً لأعدائه، كما عَكَسَ فيه شخصية البار الأمين حتى الرمق الأخير. لقد كانت القيامة حقاً قمة هذه المسيرة، إذ أجاب الله على صرخة يسوع المائت بالقيامة التي أدخلته في مجده. كيف، ترى، قُبلت هذه البشرى الفصحية؟ ضمن أية خبرة ينبغي وضعها؟

للإجابة على هذه الأسئلة علينا أولاً أن نبدأ بدرس "نصوص التراثيات" حيث تنكشف الأبعاد الجوهرية للخبرة الفصحية. بعد ذلك سنبحث مسألة تاريخية الأحداث المنقولة إلينا.

١. مقومات الخبرة الفصحية

عديدة ومتنوعة هي النصوص التي تحكي تراثيات الناهض من القبر. فالقديس بولس يذكر تراثياً "لأكثر من خمسمئة أخ معاً" (١قورنثة ١٥: ٦). وفي خاتمة الأناجيل لنا عدة نصوص تشير إلى الحدث. إن هذه النصوص ليست تحقيقات صحفية، ولكنها تأملات في خبرة، تأملات تهدف الدخول في جوهر الحدث. عندما نستذكر أحداثاً تركت أثرها في حياتنا، قد نخطئ حول بعض التفاصيل، ولكن المعاني العميقة لهذه الأحداث تكون قد انغرزت في ذاكرتنا بصورة

أساسية، بل اكتسبت عمقاً مع الزمن. هكذا الأمر مع قصص الترائيات. فمن خلال تنوعها نستطيع اكتشاف أربعة أوجه أساسية:

• كشف إلهي

تركز كافة النصوص التي تسرد حدث القيامة على عنصر المفاجأة الناجمة عن اللقاء بيسوع القائم، وكأني بالكاتب يريد أن يقول لنا بأن المبادرة في هذا اللقاء لا تأتي من الرسل، بل من يسوع نفسه: انه يتراءى بينما "كل الأبواب مغلقة"؛ أو إنه يلحق، فجأة، بالتلميذين وهما سائرين في طريق عماوس. كما اننا نقرأ عدة مرات بان يسوع "أظهر ذاته" (١قورنثية ١٥: ٣-٨؛ لوقا ٢٤: ٣٤، أعمال ٩: ١٧؛ ١٣: ٣١؛ ٢٦: ١٦). ان هذه المفردة التي تذكر "بظهورات" (ترائيات) الله في العهد القديم، ترمي إلى إفهامنا بان اعتلانات القائم من القبر هي في صلة وثيقة مع ترائيات الله. إنها تحمل ختم الله: فالله يظهر ذاته في مجده (في لاهوته) "بقدر ما يتطابق مع المصلوب وينهضه من الموت إلى الحياة". لقد أصبح القائم من القبر، من الآن فصاعداً، مسكونا بمجد الله (روما ٦: ٤).

• اعتراف

ان يسوع الذي يتراءى للتلاميذ، هو ذاته الذي عرفوه، وهو مختلف في الوقت نفسه عنه، وتأتي العلامات التي يريهم إياها في ترائياته للتأكيد على هذا الجانب، مثل: أثر المسامير، كسر الخبز...الخ. ليست هذه التفاصيل مجرد ربط بين هوية الذي مات والذي يظهر لهم ذاته حياً الآن. إنما الهدف من تسجيل هذه التفاصيل هو التأكيد على ان الذي قام من القبر هو نفسه الذي رذله الجميع وأسلم للموت. كما نرى فيها دلالة على ان الله نفسه يؤيد عمل يسوع، وعلى موافقته عليه. فكأني بالله، عندما يقيم يسوع، إنما يعيد النظر في الحكم الصادر بحقه، وبهذا،

يتحقق انتصار يسوع، ليس على الموت حسب، بل على الظلم المتمثل في إدانته. وهكذا تكون القيامة فعل تأييد لحياة يسوع برمتها.

• خطوة إيمانية

لم تُفرَض قيامة يسوع فرضاً على التلاميذ، بل عُرِضَت لقبولهم الحر، وبأعين الإيمان قبلوها. ان الاتصال الذي أعاده القائم من القبر مع جماعته هو من طبيعة ومستوى جديدين جذرياً، وتركز النصوص التي تنقل الحدث على هذا الجانب بأنواع مختلفة. فمن الواضح تماماً ان نوعية العلاقة بين يسوع وتلاميذه لم تعد تلك القائمة بينهما على طرقات الجليل، ومن الآن فصاعداً لم يعد ما يعيق درب هذه الصلة: لا الخوف، ولا الأبواب المغلقة. من جانب آخر، لا شيء يفرضها قسراً، بل انها تتم في عفوية الإيمان. لا شك ان العيون هي التي ترى، ولكنها لا تكتشف لأول وهلة. لازال الشك باقياً. ويبقى قبول القلب هو الأساس، حتى في حالة استعراض العلامات الحسية المطلوبة، كما حدث مع توما، (لوقا ٢٤: ١٦؛ يوحنا ٢٠: ٢٤-٢٩؛ ٢١: ٤؛ متى ٢٨: ١٦-١٧؛ مرقس ١٦: ١١-١٤).

• خبرة تبشيرية

لا تتخذ النصوص التي تتحدث عن اللقاء بالقائم من القبر –وهي نصوص قصيرة جداً– أسلوب الترائيات الإلهية، كما في نص التجلي، بل تتسم بطابع الإرسال للتبشير (مرقس ١٦: ٧، ١٥؛ متى ٢٨: ٧، ١٨؛ لوقا ٢٤؛ يوحنا ٢٠: ١٧: ٢١-٢٣؛ أعمال ١: ٨). فمن خلالها يختبر التلاميذ ان كلمة يسوع قد دفنت معه في القبر، لتخرج إلى الحياة من جديد على يدهم وعبر شهاداتهم الشخصية. فالتبشير علامة على ان يسوع حي، وعليهم ان يقيموا كلمته من القبر، حاملين إياها إلى العالم.

٢. الآثار التاريخية للقائم من القبر

ترى، هل يسعنا ان نمدّ رؤيانا إلى أبعد من هذه الشهادة التي يدلي بها تلاميذ يسوع الذين "رأوا" القائم من القبر؟ هل ثمة "أثر تاريخي" للحدث؟

لقد أظهر القائم من القبر ذاته لتلاميذه الذين آمنوا به، ولكنه لم يظهر للعالم الذي "لن يراه من بعد" (يوحنا ١٤: ١٩-٢٢). ان القبر الفارغ ليس برهانا على القيامة في حد ذاته، ولكنه اعتُبِر، بعد وقوع الحدث، علامةً اكتشف فيها الإيمان واقع الحدث الفصحي، وذلك بإعادة قراءته قراءة جديدة. فالأثر التاريخي الحقيقي للحدث هو جماعة التلاميذ الذين شهدوا بأن يسوع قد قام حقاً من القبر. بهذا المعنى أحسن بولس القول عندما شبه الكنيسة بجسد المسيح، وانها بمثابة كيانه في العالم.

هذا هو الحدث الواضح الذي يخضع للمراقبة حيث ينكشف فعل الله الذي أقام يسوع. ونشرح ذلك على النحو التالي:

لقد أعاد هذا الحدث الحياة للتلاميذ، وأقامهم حقاً إذ جمعهم من جديد وانتشلهم من اليأس، ولقد تم هذا التغيير بفعل قيامة معلمهم. ان مغامرة يسوع تقتحم حياتهم من جديد، وقيامته دفعتهم إلى تجاوز الشك إلى الدهشة، ومن الدهشة نقلتهم إلى الإيمان.

-الحدث الفصحي هو **اختبار غفران الله**. فالذين تركوا يسوع، ها هم قد عادوا متصالحين معه، وأصبحوا شهوداً لرحمته (يوحنا ٢٠: ١٩-٢٣). أما الظهورات، فليست للتحقق من شخص يسوع حسب، ولكنها تعكس خبرة حياتهم ذاتها عن هذا الغفران الذي طالما وسم أسلوب يسوع في علاقته بالخطأة.

-أخيراً، الحدث الفصحي هو **سبب تحرير**. فالتلاميذ ينتقلون من اليأس إلى الرجاء، ومن الخوف إلى الفرح، ومن الرعب إلى الإدلاء بشهادتهم، والذي يعتلن لهم إنما هو إله العهد حقاً، الذي يحرر شعبه: في يسوع القائم يكتشف التلاميذ الله المخلص الذي كان قد باشر عمله في وجود يسوع السابق لحدث فصحه. وهكذا تتواصل مغامرة يسوع، من الآن فصاعداً، فيهم وبواسطتهم، وستكون رسالتهم، على غراره، ان يعملوا ما عمله هو، أي: شفاء المرضى (أعمال ٣: ٦-٨)، والتعليم، والدعوة إلى المقاسمة، وكسر الخبز (أعمال ٢: ٤٢).

قيامة يسوع

هل هي حدث تاريخي؟

إذا كانت القيامة دخول يسوع في عالم الله، فهي لا تدخل في تصنيف الأحداث التاريخية، لأن المؤرخ لا يستطيع الإحاطة إلا بما هو ضمن عالمنا. بيد ان عالم الله هذا، إذا لم يخضع لقوانين عالمنا، فهو في علاقة مع عالمنا، كما نستشف ذلك من قصص الترائيات. إلا أن هذه العلاقة ذاتها نلمسها بالإيمان فقط.

وللتعبير عن سمو القائم على عالمنا، يلجأ العهد الجديد إلى تعبيرين: تعبير القيامة الذي يستخدم صيغة قبل/بعد (قبل: مات؛ بعد: هو حي)؛ وتعبير التمجيد، الذي يستخدم صيغة تحت/فوق (يسوع ممجد، رفع إلى الله). وبينما تؤكد الصيغة الأولى على الهوية الشخصية ليسوع قبل وبعد موته (الشخص ذاته هو الذي مات، وهو حي الآن)، تركز الصيغة الثانية على العبور إلى حياة من طبيعة تختلف تماماً عن طبيعة الحياة السابقة التي تخلى عنها (ان حياة القيامة هي حياة أخرى تختلف جذرياً عن حياته يوم كان هنا على الأرض).

ان قيامة المسيح حدث حقيقي، وبهذا المعنى هي تاريخية، لأنها تخص مصير ابن الناصرة التاريخي. ولكننا لا نستطيع وصفها بالحدث التاريخي بمعنى انه، في سياق وضعها الجديد الذي يتجاوز سياقات التاريخ، ليست حدثاً في متناول اليد، خاضعاً للتوثيق التدويني من خلال آثار تركها في التاريخ، وتجعل منها مادة بوسع المؤرخين ان يحللوها.

فالقيامة، من حيث انتماؤها إلى عالم الله، لا تدخل في حقل العلم التاريخي، ولا يمكن الارتباط بها إلا عن طريق العلاقة الإيمانية. والأثر التاريخي الوحيد هو وجود جماعة تشهد بأنه حي.

رابعاً: البشرى الفصحية

لقد أعلن التلاميذ ما اختبروه يوم الفصح، مفضلين الطاعة لله على سماع كلام الناس (أعمال ٥: ٣٢). وبوسعنا الآن ان نتحقق من آخر عنصر لهذه الكرازة: ألا وهو ان الفصح افتتح زمناً جديداً. ما هو يا ترى هذا الزمن؟ إننا نستدل على المؤشرات الأساسية لهذا الزمن من خلال ثلاثة تأكيدات ترد في قانون الإيمان، وهي:

١. اليوم الثالث، أو زمن الروح

إذا قام يسوع، "فاليوم الثالث" قد أتى، والقيامة العامة قد بدأت. لنذكر ان الرجاء بيسوع كان قد ورد في عبارات تشير إلى نهاية العالم؛ وإحدى هذه العبارات هي "اليوم الثالث". وإذا كان يسوع قد قام، فقوة الروح ظهرت في العالم لتقوده نحو هدفه، ويسوع هو "البكر"، "بكر إخوة كثيرين". إنه دليل يسير في مقدمة بشرية مكتملة (قولوسي ١: ١٨؛ روما ٨: ٢٤؛ ١قورنثية ١٥: ٢٠-٢٧، ٤٥-٥٠)، وقيامته فتحت عهد قيامة الموتى: من أجل ذلك تعتبر القيامة الحدث الخلاصي الأكبر.

من هنا جاء الاستنتاج بأن الكتب تكتمل بيسوع (لوقا ٢٤: ٢٧ و٤٤)، وبأننا بهذه الصلة ذاتها نستطيع ان نكتشف، عبر الأسفار المقدسة كلها، أن "كل شيء خلق من أجله" (قولوسي ١: ١٦). فبه "أطلعنا الله على سر مشيئته، أي ذلك التدبير الذي ارتضى قضاءه في المسيح، ليحققه عندما تتم الأزمنة، فيجمع في المسيح كل شيء" (أفسس ١: ٩-١٠).

ان ما ينسب إلى يسوع، الذي جُعل "إبناً لله في القـــوة" (رومـــا ١: ٤)، يخص البشرية جمعاء. فهو المدعو "أمير الحياة"، قد اقتبل الروح لكي يُشرك الآخرين به (يوحنا ٢٠: ٢٢). وفي هذا التعليم نجد وجهاً من أوجه الخبرة الفصحية المهمة، وهو أن قيامة يسوع تعتلن عبر حياة جماعة اعتملت فيها القيامة. ففي قيامة يسوع، إذن، حركة مزدوجة، الأولى تتجه نحو الآب –بها يرتقي يسوع بكل كيانه نحـــو عالم الله–، والثانية تتجه نحو إخوته ليدخلهم في عالم الله هذا. وبالرغم من دخوله في عالم الله، يمكث يسوع مع تلاميذه طوال الأيام، وحتى منتهى الأزمـــان (مـــتى ٢٨: ١٨-٢٠).

٢. وصعد إلى السماء

في كتابات العهد الجديد بُعدٌ لاهوتي مزدوج لصورة الصعود إلى السماء.

– فهي، من جهة، ترمز إلى فكرة **النصر الكامل للمسيح** علـــى كافـــة القوى المعادية لله. كما ترتبط فكرة الصعود بفكرة الهبوط إلى الجحـــيم، حيـــث خضع يسوع بموته لحالة الموت حتى النهاية. فالجحيم يمثل المصير المأساوي الأشـــد قسوة، وأفضع ما يمكن أن يناله الإنسان من حرمان. لقد منح المـــسيح الخـــلاص لجميع الناس، مهما كان بؤسهم، لذا يدعونا نزوله إلى الجحـــيم للتأمـــل في أيـــة دركات هبط به الموت، وبالتالي للاعتراف بالنصر الخارق الذي حققته قيامته. أمام هذا النصر الكاسح لا تستوي أية قوة تدعي السيطرة علـــى العـــالم؛ "ولا شـــيء يفصلنا، من الآن فصاعداً، عن حب الله الذي ظهر بربنا يسوع المسيح" (روما ٨: ٣٨-٣٩؛ أعمال ٢: ٢٤؛ روما ١٠: ٦؛ أفسس ٤: ٨-٩؛ ١بطـــرس ٣: ١٨-٢٠). وهكذا يبقى الموت والقيامة مرتبطين ارتباطاً لا ينفصم.

- من جهة أخرى يفتتح الصعود إلى السماء الحقبة التي نسميها **زمن الكنيسة**. ففي حيّز مدة زمنية قوامها أربعون يوماً ما بين القيامة والصعود، يرشد يسوع تلاميذه فيها، إنما يجيب سفر أعمال الرسل إلى سؤال أساسي كان المسيحيون يطرحونه، وهو: كيف، ترى، لم يتغير العالم بالرغم من انتصار يسوع؟ فقصة الصعود تلقي الضوء على هذه المسألة. لذا علينا ان نقرأها على ضوء نص (٢ملوك ٢: ٩-١٢) عندما يقول إيليا النبي لتلميذه اليشاع: إذا رأيتني وأنا مرتفع عنك، فستنال روحي وقوتي لتكمل الرسالة. وهذا ما تم في صعود يسوع إذ غادر تلاميذه. ولكن لوقا يذكر مؤكداً ثلاث مرات انهم يرونه. فالعبرة واضحة: بما انهم رأوه منطلقاً، فتلك إشارة تنبيء بأنهم سينالون روحه. وهذا هو زمن الكنيسة الذي يبتدئ.

بذلك يتوضح لنا وجه آخر من السر الفصحي، ألا وهو وجه الكتمان، حيث نرى تطابقاً عميقاً بين موقف يسوع قبل الفصح وبعده: قبل الفصح يكشف يسوع عن ذاته كالذي يخدم، كمن يعرض، لا كمن يفرض، رافضاً أي عمل فيه روح التباهي. أما بعد الفصح، فهو يحتفظ بالهدوء ذاته، ولا يتهجم على الذين أعدموه. انه يختفي في الجماعة المؤمنة، إذا صح القول، وستكون الأعمال التبشيرية للمسيحيين هي التي ستكشف عنه: مثل المقاسمة، وكسر الخبز (أعمال ٢: ٤٢).

٣. سيأتي ليدين الأحياء والأموات

يتم حدث الفصح بصمت، ويدشن عهد انتظار عند المسيحيين الأولين، ويتخذ هذا الانتظار شكل قلق من تأخر الملكوت، ويستند هذا الموقف على وعد سابق بمجيء الرب. لقد ذكرت المصادر هذا المجيء (وهو ليس "عودة" أبداً)، أو هذا "الظهور الأخير" (وتعني هذه العبارة المدنية أصلاً زيارة ملك لأحدى مدنه)

بأشكال شتى. ونرى النموذج الكتابي الضمني لهذا الظهور في تجلي مجد الله على جبل سيناء (خروج ١٩). فنهاية الزمان تعتبر إكتمالاً لأحداث الخروج: سيأتي المسيح ويأخذ شعبه قائداً إياه إلى الآب. "وهكذا سنكون دوماً مع الرب" (١طيموثاوس ٤: ١٧): لنلاحظ البعد الجماعي للخلاص.

يدشن الفصح زمناً جديداً، ويتضمن وعداً بالخلاص. لذا، لا يليق ان نقلّص الخلاص إلى حجم البعد الشخصي وحده. والزمن الذي يلي الفصح ليس زمناً فارغاً: إنه الزمن الذي يبنى فيه التاريخ الجماعي لخلاص البشر، وذلك بالرغم مما يبدو لنا غياباً لصوت الله أو لحضوره في الأحداث. فإذا صح ان المجيء الثاني للرب سيحقّق مخطط الخالق، فمن الطبيعي ان يتحقق الوعد الذي تم بقيامة يسوع، على صعيد العالم المخلوق، وصولاً إلى انبثاق نور حياته وحقيقة انتصاره في عالمنا.

هل ينبغي ان نتخيّل، في نهاية المطاف، دينونة تتيح لقوة الله ان تتألق؟ يطرح هذا السؤال بُعدين: لو عدنا إلى القديس يوحنا لرأينا أن الحكم على التاريخ يصدر من الآن (يوحنا ٣: ١٩)، من خلال رفض نور المسيح أو قبوله. إلا ان نصوصاً أخرى تدفع هذا الحكم إلى نهاية العالم. ليس ثمة تناقضاً بين التوجهين: سيكشف المجيء الثاني عن حقيقة الحكم الذي بدأت بوادره منذ الآن. لنعد قراءة متى ٢٥: ٣١-٤٦: ان مثل الدينونة يعبر عن تطابق قضية الإنسان وقضية مسيح الله.

•

• •

في بداية بحثنا، لاحظنا ان لكل دراسة في لاهوت المسيح ثلاثة أبعاد: البعد التاريخي، والبعد الخلاصي، والبعد الذاتي. ولقد وضعنا القسم الأول من هذا المسار

في منبع الإيمان بيسوع المسيح، ابن الله. وسنكمل دراستنا هذه في اتجاهين: من جهة، سندرس كيف وصل التعبير عن الإيمان بيسوع إلى مرحلة الاعتراف بيسوع إبناً أزلياً للآب (البعد الذاتي)، هذا الإيمان الذي أتانا، تاريخياً، من الخبرة الفصحية للتلاميذ. ومن جهة أخرى سنبحث كيف فُهم البعد الخلاصي لهذا الحدث، أعني كيف تم الكشف عن يسوع مخلصاً للعالم؟

ان منطق الأولويات قد يوحي بوجوب البحث في موضوع "يسوع المخلص" قبل البحث في موضوع "يسوع ابن الله". ولكننا بإتباعنا الطريق المعاكس، إنما نختار أسلوباً تربوياً يصعد بنا من التقليد الحي المعاش، بحسب تاريخ وقوع الأحداث. فلقد وضعتنا المرحلة الأولى في صلة خاصة مع الكتاب المقدس، أما المرحلة الثانية فستضعنا بالأحرى على مستوى كنيسة الآباء، الذين وضعوا الأسس الأولى للتقليد العقائدي للكنيسة. بينما ستقودنا المرحلة الثالثة إلى اكتشاف لاهوت القرون الوسطى، والبروتستنتية، وصولاً إلى يومنا هذا.

(٢)

"أيقونة الله غير المنظور"

الإيمان بيسوع، ابن الله

فان الله الذي قال:
"ليشرق من الظلمة نور"
هو الذي أشرق في قلوبنا
ليشع نور معرفة مجد الله،
ذلك المجد الذي على وجه
المسيح
(٢قورنثية ٤: ٦)

في سياق هذه المرحلة الجديدة التي ستأخذنا عبر مجمل تاريخ المسيحية، سنحاول الإطلاع على كيفية اكتشاف هوية يسوع، وكيفية التعبير عن الاعتراف به إبناً أزلياً لله أبيه، وكيف بلغ إلينا هذا الاعتراف الذي تناقلته الأجيال. سيتضمن هذا القسم ثلاث فقرات هي:

١. إيمان الكنيسة: لقد صاغت الكنيسة إيمانها بلاهوت يسوع تدريجياً. وتتجذر هذه الصياغة في الخبرة الفصحية، وتبلغ قمتها في تحديدات المجامع المسكونية الأولى، التي عليها بنى لاهوت القرون الوسطى تفسيراته.

٢. التقليد موضوع معارضة: لقد واجه التعبير الكنسي للإيمان معارضة عبر الأجيال. وسنتوقف لدى مرحلتين مهمتين من هذه المعارضة: الإصلاح البروتستنتي، ونظرية العقلانية التي لا زال تأثيرها قائماً في الغرب.

٣. بحوث معاصرة: أما في الفقرة الأخيرة، فسنحاول استكشاف الطرق الحالية في دراسة لاهوت المسيح، وانفتاح هذه الدراسات على مواقف جديدة، والصيغ التي تتخذها الشهادة الكنسية اليوم عن شخص يسوع، ابن الله.

لا مناص من هذه النظرة إلى الوراء، وإن بدت قاسية أحياناً. فمن الضرورة بمكان ان نستعيد ذاكرة الكنيسة بهذا الشكل. وسنكتشف ان الإيمان ليس نظاماً فكرياً مجرداً مجهول الهوية، بل حالة وجدانية مكشوفة بنيت وسط الصراعات، وقد تداخل في إنشائها أشخاص وثقافات، في جو من الحوار الدائم بين كلمة الله وعقل الإنسان الذي دأب على استقبال ثراء هذه الكلمة ليحيا منها

ويسلمها لغيره. غير ان الذاكرة وحدها لا تكفي. لذا سنرى في الفقرة الثانية كيف ان ظهور تحديات جديدة في زمن العقلانية دفعت الإيمان إلى استحثاث العقل في اجتهادات جديدة بحثاً عن أجوبة ملائمة. فهدفنا ليس "دراسة التاريخ"، بل استحثاث همتنا لنكون مهيأين لفهم التساؤلات المعاصرة الناجمة عن هذا التاريخ.

أولا: إيمان الكنيسة

منذ بدايات الكنيسة، نشأت الأبحاث حول سر المسيح في صلة مع التقاليد الثقافية والدينية للجماعات المختلفة التي تكوّنت منها هذه الكنيسة. ولعل أكبر برهان على ذلك وجود أربعة أناجيل، ولا يمكن ان تدمج في واحد. اننا لن نسترسل في سرد جوانب التطور الحاصل للإيمان الفصحي الأول منذ نشأته وحتى وصوله إلى الإيمان بالثالوث. ومع ذلك من المفيد ان نتطرق إلى بعض النقاط الدالة الأساسية التي عبّدت الطريق من أورشليم إلى نيقية، ومن نيقية إلى خلقيدونية.

١. من أورشليم إلى نيقية:

أ- الشهادة الرسولية: هناك صيغ مختلفة لهذه الشهادة وفقاً لوضع الجماعات، كما أسلفنا. ولقد بلغت هذه الصياغة شكلها بعد تأمل عميق في النصوص المقدسة، والعودة إلى حياة يسوع نفسه، كما صيغت في صلة مع حياة الكنيسة ورسالتها. ونشير هنا، من دون استرسال، إلى نقطتين اضطرتنا الكنيسة إلى توضيحهما مبكراً، وهما: وجود يسوع السابق، والإشارة إلى يسوع إبناً لله.

• الوجود السابق

ان الوجود السابق ليسوع يعبر عن تسامي يسوع على التاريخ. فالوجود السابق ليسوع يعني حرفياً الاستباق في الوجود. ان هذه الفكرة تعني ان يسوع لا يأخذ جذور وجوده من التاريخ وحده، بل انه يتجاوز التاريخ، لا لأنه مُجَّد إلى يمين الآب، بل لذاته أيضاً. لقد أكد العهد الجديد على هذا الوجود السابق بأشكال شتى، وعلى سبيل المثال، تحدث عنه بولس كذلك إذ أكد على ان يسوع هو "الابن الحبيب للآب"، وهو أيقونة (صورة) الله غير المنظور، وهو الذي فيه، وبه، ومن أجله "خلق كل شيء" (قولوسي ١: ١٣-٢٠)، وكذلك يتكلم يوحنا في مدخل إنجيله (يوحنا ١: ١-١٨).

وتأتي **الخبرة الفصحية** في مقدمة الأسباب التي أتاحت الوصول إلى هذه الإثباتات الخارقة، علماً بأن الخبرة الفصحية تعني خبرة الخلاص. فإذا ما اكتمل مخطط الله بيسوع، أفليس ان الله هو الذي رسم هذا المخطط؟ فبين البداية والنهاية، بين الألف والياء لابد من قطب للالتقاء! وعندما اكتشف الوثنيون الطريق إلى الله بيسوع، هم الذين كانوا يعبدون القوات السماوية، فلقد فهموا بالفعل ذاته ان يسوع هو أسمى من هذه الكائنات غير المرئية التي كانوا يسجدون لها ويتخذونها وسائط للبلوغ إلى الله.

وهناك مصدر آخر لتلك الإثباتات هو **حياة يسوع** ذاتها. فعندما أعاد التلاميذ قراءة حياة يسوع على ضوء القيامة، فهموا ان ادعاءات يسوع في وضع ذاته فوق الشريعة والهيكل، كممثل لله الذي وحده يغفر الخطايا، إنما تنبثق من هويته الإلهية القائمة. وكانت سلطة يسوع قبل القيامة رهاناً على أن قوة الله كانت فاعلة فيه مذ ذاك.

أما الدعامة الثالثة التي اتاحت للتلاميذ ان يأخذوا بفكرة الوجود السابق، فهي **العهد القديم**. ان التأمل بالعهد القديم فتح لهم الطريق لإيجاد لغة جاهزة تساعدهم على التعبير عن سمو يسوع فوق الطبيعة. فلنعد إذن إلى صورة "ابن الإنسان"، ولاسيما إلى "الحكمة" كما ترد في النصوص الحكمية الكبرى في هيئة شخصية تتمتع بعلاقة حميمة مع الله، وبيدها المبادرة للتحكم بمصائر العالم: لم يبذل التلاميذ كبير عناء لتطبيق هذه الصور على شخص يسوع، وقراءة أبعادها في شخصيته.

• البنوّة الإلهية

كيف تم الوصول إلى تسمية يسوع "إبناً لله"؟ يظهر هذا الاسم الذي أطلق على يسوع القائم من القبر في كتاب أعمال الرسل، إلى جانب أسماء أخرى، ذات شأن أيضاً، مثل: "الرب" (٢: ٣٦؛ ١٠: ٣٦)، "أمير الحياة" (٣: ١٥؛ ٥: ٣١)، "المخلص" (٥: ٣١؛ ١٣: ٢٣)، "النبي" (٣: ٢٢)، "القدوس" و "الصدّيق" (٣: ١٤). ويتخذ اسم "ابن الله" عند بولس، ومن ثم في الأناجيل، أهمية عظمى، إلى حد صار يشير إلى سر يسوع في علاقته مع الله، لدى يوحنا.

لنتذكر شيئاً واحداً وهو ان هذا الاسم ليس وقفاً على يسوع. ففي العهد القديم تطلق صفة "ابن الله" أحياناً على الملائكة، وخاصة على شعب إسرائيل (خروج ٤: ٢٢؛ هوشع ١١: ١)، وعلى الملك الذي يمثل مصير هذا الشعب، ويطلق من ثم على المشيح (مزمور ٢: ٧؛ أعمال ٩: ٢٠ و٢٢). لم يطالب يسوع ذاته بهذه التسمية أبداً، ولكن الدهشة تأخذنا عندما ننظر إلى الصلة الحميمة القائمة بين إعلان "ملكوت" الله، -هذا الإعلان الذي كان مركز كرازته- واسم "الابن". ويكفي، لذلك، ان نفهم ان الملك-المشيح هو "ابن بمعنى خاص ومتميز تماماً عن سائر الملوك، لأن الملكوت الذي هو حلقة ارتكازه، هو ذاته الملكوت النهائي لله.

فلا يتعلق الأمر إذاً بملكوت أرضي اعتيادي"[٥]. لقد تعمقت هذه الميزة الخاصة بيسوع، لدى تلاميذه، أي بنوته الإلهية، طيلة المدة التي قضوها في صحبة معلمهم، حيث لمسوا علاقته المتميزة مع الله عن كثب. وتشهد النصوص الإنجيلية على ذلك علانية، إذ تضع يسوع في موقع بين الملائكة والآب، بكل وضوح (مرقس ١٣: ٣٢). انها تلاحظ انفراد يسوع بتسمية الله "أبا" (بابا)، هذه التسمية التي لم يتجرأ أي يهودي تقي ان يتبناها. لنقرأ البركة الواردة في متى ١١: ٢٥-٢٧. هكذا يلاحظ التلاميذ ان علاقة خاصة فريدة تماماً تقوم بين الله ويسوع، وان يسوع، إذ علمهم ان يدعوا الله في صلاتهم بالمفردات ذاتها التي دعاها هو نفسه بها، إنما يكشف لهم أن باستطاعتهم هم أيضاً أن يشاركوا هذه العلاقة الجديدة تماماً. انهم يشعرون بالجرأة التي تمثلها هذه التسمية في صلاتهم، مما جعلهم ينسبونها إلى الروح القدس (غلاطية ٤: ٤-٦؛ روما ٨: ١٥).

ان دراسة النقطتين اللتين استعرضناهما بإيجاز هنا، تظهر كيف توصل التلاميذ إلى الاعتراف بالطابع الفريد والمتسامي القائم بين يسوع والله. انه ليس الصدّيق الممجد إلى يمين الله، حسب، بل هو الابن الذي يحيا من حياة الله ذاتها منذ الأزل، وهو أكثر من ممثل للشعب المختار والبشرية: "فلما تم الزمان، أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة" (غلاطية ٤: ٤). "فمع انه في صورة الله، لم يعّد مساواته لله غنيمة، بل تجرد من ذاته متخذاً صورة العبد، وصار على مثال البشر، وظهر في هيئة إنسان" (فيلبي ٢: ٦-٧)

ب- **الثقافة اليهودية والثقافة اليونانية**: ان الشهادة الرسولية شهادة فريدة، لأنها تعتمد خبرة متميزة وغير قابلة النقل إلى الأجيال التالية. فمع حقبة "آباء الكنيسة" ابتدأ جيل الذين لم يروا، ولن يكون من بعد إعلان الرسالة وحده كافياً. فبعد مرحلة الكرازة الرسولية تبتدئ مرحلة "البرهان والاستقصاء: لقد

رأوه، وبوسعنا ان نصدقهم **لأن**..."[٦] فسيتحتم على مسيحيي القرنين الثاني والثالث ان يجدوا البراهين التي تستوضح سر المسيحية على جبهتين: جبهة اليهودية والجبهة الهلينية حيث انتشرت الكنائس الفتية أول الأمر.

• في تماس مع اليهودية

لقد حدثت أول مجابهة بين المسيحيين القادمين من اليهودية والمسيحيين القادمين من العالم الوثني، وقامت مناقشة واسعة في صفوف الجماعات المسيحية التي استمرت تسلك بحسب الشريعة اليهودية. وطرح السؤال التالي: ما هي العبرة من استمرار هذه المرجعية؟ وانبرى أولئك القادمون من اليهودية يفسرون سر القائم من بين الأموات بالعودة إلى صور ومفاهيم مستقاة من التوراة. ووقع عدد من الانحرافات في هذا الجو الجدلي. لنذكر على سبيل المثال:

- **نظرية التبني**: بموجبها يكون يسوع رجلاً **قد تبناه** الله في العماد، أو في حدث القيامة.

- **نظرية الهيئة**: وهي عكس النظرية السابقة، بموجبها يكون يسوع مجرد هيئة تجلى فيها الآب: يسوع هو "صورة" كينونة الآب.

- **نظرية الآب المتألم**: بموجبها ليس يسوع هو الذي تألم، بل الآب الذي **احتمل "الآلام"** على الصليب.

• المجابهة مع الهلينية

ستكون المجابهة الثانية من جراء الاحتكاك بالحضارة الهلينية الوثنية، وستكون هذه المجابهة أعنف من السابقة. فبينما ينظر اليهودي إلى تدخل الله في التاريخ بصورة مباشرة عن طريق الوسطاء الذين يختارهم الله (كالآباء وموسى والأنبياء وغيرهم)، يرى اليوناني الكون كياناً هرمياً –معتبراً العالم المادي انحطاطاً للعالم غير الهيولي واللامنظور– لذا فهو يفضل بوضوح صورة أكثر تجريداً، ألا

وهي الحكمة، أو الكلمة (لوغوس Logos). واللوغوس مفهوم فلسفي شائع في الفكر اليوناني، سرعان ما لجأ إليه إنجيل يوحنا بكثافة. ولكن ثمة فرقاً شاسعاً بين هذا "اللوغوس" اليوناني الذي اعتبر علّة الكون، وكلمة الله، بحسب المفهوم اليهودي، هذه الكلمة التي قادت التاريخ حتى اتخذت جسماً فيه. أما بالنسبة إلى الحكمة اليونانية التي اعتبرت الجسد سجن النفس، فالتجسد كان أمراً يصعب القبول به. ففي مثل هذه البيئة الفكرية اليونانية، كان على المفكرين المسيحيين ان ينشطوا في إيجاد التعابير التي تعكس وحدة يسوع مع الله.

بعض الوجوه البارزة للفكر اللاهوتي القديم عن المسيح

• أغناطيوس الأنطاكي: بطريرك أنطاكيا (سوريا)، حكم عليه في عهد تراجانوس (٩٨-١١٧) بإلقائه للوحوش. له رسائل كتبها في سياق تركيزه على العناصر الجديدة في المسيحية إزاء الدين اليهودي، أكد على حقيقة إنسانية المسيح.

• يوستينوس (نحو ١٠٠-١٦٥/١٦٤): فيلسوف من أصل فلسطيني، عاش في روما. دافع عن الإيمان. ترك لنا كتاب "حوار مع تريفون". في هذا الكتاب يحاور اليهود ويتوجه في الحديث إلى الإمبراطور الروماني دفاعاً عن المسيحيين. وفي سياق توفيقه بين الفلسفة الوثنية والدين المسيحي، يؤكد على ان اللوغوس لم يظهر بكماله إلا في شخص المسيح وحده.

• ايريناوس نحو (١٣٠-٢٠٢): أسقف ليون (فرنسا)، أصله من آسيا الصغرى حيث عرف القديس بوليكربس، ومن خلاله تعرف على مار يوحنا الرسول. كتب كتاب "ضد الهراطقة" ووجهه إلى الغنوصيين (المعرفيين). يحاول الإحاطة بالعلاقة الحقة القائمة بين الابن والآب، وذلك عن طريق الفكر والعقل، وصور الابن ككائن يحتوي الخليقة كلها في ذاته (انظر الملحق رقم ٢).

• ترتليانس (١٥٥-٢٢٠): ولد في قرطاجة (تونس)، وهو أول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية. كتب كتباً عديدة ضد خصوم مختلفين. يركز في فكره اللاهوتي عن المسيح على حقيقة الجسد البشري للمسيح، وعلى قيامة الجسد الذي فداه المسيح، وكان في ذلك يقصد دحض الدوسيتيين (أي الظاهريين).

• أوريجانس (نحو ١٨٥-٢٥٢/٢٥٣): أصله من الإسكندرية (مصر). كرس حياته للدراسة الكتاب المقدس دراسة علمية. وهو أول من استخدم عبارة "الإنسان – الإله" (ثيانتروبوس théanthropos) التي ستستقر في القاموس اللاهوتي. وعمل على تطوير نظرية الوجود السابق للنفس البشرية للمسيح، محاولاً الربط بين نظرية اللوغوس ونظرية يسوع المتجسد.

• اثناسيوس (٢٩٨-٣٧٣): بطريرك الإسكندرية (مصر). انبرى كأكثر المدافعين حماساً عن إيمان نيقية ضد مزاعم آريوس. فاستحصل أنصار هذا الأخير نفيه خمس مرات.

• قورلس الإسكندري (نحو ٣٨٠-٤٤٤): بطريرك الإسكندرية (مصر). دافع بضراوة عن الإيمان المستقيم ضد نسطوريوس. محرك مجمع أفسس، حيث انتصر تعليمه اللاهوتي.

• لاون الكبير (+٤٦١): بابا روما منذ ٤٤١، لعب دوراً حاسماً في الجدالات اللاهوتية التي عقبت مجمع أفسس. استقبلت "رسالته إلى فلافيوس "بطريرك الإسكندرية، كقاعدة إيمانية (٤٤٩)، أي بمثابة التعبير الأصيل للإيمان المستقيم.

أما المسيحيون القادمون من الثقافة اليونانية، فبسبب بعدهم عن الذهنية البيبلية، سيلجأون إلى مفاهيم أخرى للتعبير عن وحدة يسوع مع الله. وسرعان ما وقعت الانحرافات فجاءت الغنوصية، التي هي مفهوم يوناني (من اليونانية: غنوصيس = معرفة) لتقسم العالم إلى قسمين: المادة الفاسدة، والروح الصالحة. ومن الغنوصية انبثقت حركة دينية تعرض الخلاص عن طريق المعرفة: لنيل الخلاص، عليك ان تهرب من هذا العالم الفاسد. ان هذه الفكرة تضاد الخلاص المسيحي الذي افتتحه الله بمجيئه في الجسد ويكتمل بقيامة الأجساد، لذا دعوا بالظاهريين (الدوسيتية = من فعل دوسيري docere اللاتيني، ويعني تظاهر).

وسيكون القديس ايريناوس أسقف ليون (فرنسا) أحد الخصوم العنيدين للغنوصية. فإذا كان المسيح لم يتخذ جسداً حقيقياً، على حد قوله، لما نلنا الخلاص، لأن الخلاص لا يتحقق إلا لما ضمه المسيح إليه. فلقد كتب في بحثه ضد الهراطقة: "ان كلمة الله صارت ما نحن، لنصير نحن ما هو" (ضد الهراطقة، ٥، المدخل).

مدخل مزدوج لفهم سر المسيح

لم ينفرد القديس ايريناوس في هذا الصراع. فلقد تبعه آباء الكنيسة في هذه الجدالات التي ستعود في القرن الرابع حول لاهوت المسيح بقوة جديدة. وبوسعنا ان نكتشف اتجاهين لفهم سر المسيح في هذه الحقبة، برز الأول في الأوساط الإسكندرانية، بينما ظهر الثاني في أنطاكيا.

- في الإسكندرية: للبرهان على وحدة المسيح والله، كانوا ينظرون إلى سر المسيح انطلاقاً من أصله الإلهي، بوصفه الكلمة الإلهية، بالرغم من كون هذا المدخل قميناً بأن يخفف من حقيقة إنسانيته، بل ان يهملها (منظور "الكلمة-الجسد").

- أما في أنطاكيا: فكانوا يركزون بالأحرى على إنسانية يسوع. غير ان هذه النظرة اللاهوتية عن "الإنسان-الكلمة" التي تعطي الأولوية لأصالة يسوع الإنسانية، لم تكن صلبة بما يكفي لتسند اتحاده مع الله وآلوهيته.

ان الإشكالية الأساسية لهذين المدخلين هي كيف ان الله تدخل في التاريخ ليقاسم البشرية وضعها الجسداني؛ كيف يمكن التأكيد في الوقت عينه على تسامي الله المتعالي عن العالم، وعلى ولوجه التاريخ بالشكل الذي تم بواسطة الكلمة المتجسدة؟ لقد عملت الآريوسية على ارغام الكنيسة إلى توضيح مفرداتها لحماية إيمانها المهدَّد من قبل النزعة العقلانية اليونانية.

ج- إيمان نيقية (٣٢٥): وانفجرت الأزمة في الإسكندرية، حين اقترح آريوس، أحد كهنة الإسكندرية، عقيدة بسيطة تنفي إمكانية ان يكون المسيح إلهاً. ولقد اعتبر مشروعه بمثابة محاولة لِيَوْنَنَة المسيحية: لا يمكن لله، في الواقع، ان يعطي طبيعته للعالم. لذا من غير الممكن أيضاً اعتبار الابن إلهاً متجسداً بشرياً. فالابن خليقة بشرية، مولودة من الله، وبما انها مولودة، فلا يمكن ان تكون سوى جوهر مخلوق. ويستنتج آريوس مؤكداً "ان الله، في زمن ما، لم يكن أباً، وإنما أصبح كذلك في ما بعد. الابن لم يكن موجوداً دائماً (...) وكلمة الله ذاته صُنع من لا شيء". وهكذا تعرض مفهوم الخلاص المسيحي من جذوره للتشكيك.

وانبرى ٣١٨ مطراناً شرقياً لمواجهة التحدي في اجتماع عقدوه في نيقية، المقر الصيفي للإمبراطور قسطنطين، بعرضهم تحديداً للإيمان استندوا فيه على صيغة عقائدية سابقة. فأضافوا إلى هذه الصيغة بعض العبارات الجديدة لتوضيح الإشكالات التي التصقت ببعض النصوص الكتابية التي استخدمت في الجدالات. واليك نص الصيغة النيقاوية:

"نؤمن بإله واحد، آب، ضابط الكل، خالق كل الأشياء، الظاهرة وغير الظاهرة.
وبرب واحد، يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب، أعني من جوهر الآب.
إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر (بالإمكان ترجمة العبارة اليونانية homoousion بـ "من الطبيعة ذاتها")،
به صار كل شيء مما في السماء وعلى الأرض.
الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا،
نزل وتجسد وصار إنساناً،
تألم وقام في اليوم الثالث،
وصعد إلى السماء، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات
وبالروح القدس".

من دون أن ندّعي استعراض كل ما جاء به هذا المجمع، فمن المفيد ان نركز على بعض النقاط الأساسية، منها:

• تبدو اللغة الكتابية التي تعبّر عن الخلاص المسيحي من خلال النصوص التي تورد تدخلات الله في التاريخ، تبدو غير كافية للتعبير تماماً عن معطيات الإيمان. لذا كان لزاماً ان تتبنى هذه اللغة مفردات تقنية مأخوذة من الثقافة اليونانية لتستوضح المعاني المطروحة بما يشبه عبارة: "أعني...." كذا وكذا.

• لقد أكمل آباء المجمع نواقص اللغة الوصفية (descriptive) الكتابية باللغة الذاتية (ontologique). فلقد أعاد الآباء جذور ما فعله الله من أجلنا بواسطة يسوع المسيح وفيه إلى كينونة الله في ذاته، أعني إلى العلاقة "الذاتية" التي تربط الآب والابن. وهكذا حافظوا على تسامي الله عن التاريخ.

• وخلاصة القول ان آباء المجمع واجهوا آريوس بالبرهان عن ان يسوع – هذا الإنسان الذي تألم من أجل خلاصنا في عهد بيلاطس البنطي- هو من كيان الله ذاته. وهذا ما تعنيه كلمة "المساوي في الجوهر". وبهذا ركز الآباء المجمعيون

على سمو الله المطلق إزاء العالم، مع محافظتهم على فكرة أن هذا السمو لا يتعارض مع الصلة المطلقة لله مع البشر.

٢. المجامع الكريستولوجية

لا ينبغي حصر عمل مجمع نيقية بالمسألة الكريستولوجية، وان كانت هذه المسألة من جوهر اهتماماته. ففي أعقاب هذا المجمع بدأ نشاط فكري واسع ومركز في الكنيسة حول الله والمعرفة التي بوسعنا ان نمتلكها عنه، وحول موقع الروح القدس ضمن الثالوث الأقدس... الخ. أما بخصوص شخص المسيح، فلقد ترك مجمع نيقية مسألتين عالقتين هما:

- إذا كان يسوع إلهاً، فكيف تتم المحافظة على إنسانيته كاملة؟
- وكيف تتوافق الحقيقة الإلهية والحقيقة البشرية في شخصه من دون أن تتعارضا؟

حول هاتين المسألتين اختلفت وجهات النظر بين أنطاكيا والإسكندرية، كما أسلفنا. وبسبب هذا الاختلاف ذاته أثيرت المسألة الكريستولوجية من جديد. وانبرى أبوليناريوس اللاذقي يدافع عن وحدة المسيح نافياً الاعتراف له بنفس بشرية، إذ كان يقول: "واحدة هي الطبيعة المتجسدة للكلمة الإلهية". فشجب القديس أثناسيوس هذا الموقف في مجمع الإسكندرية (٣٦٢)، وأدانه البابا داماسيوس سنة ٣٧٧.

مجمع أفسس (٤٣١)

وظهر تطرف آخر من جراء التيار الأنطاكي (الإنسان/الكلمة) في حوالي ٤٢٨-٤٢٩ مع نسطوريوس بطريرك القسطنطينية الجديد الذي رفض إعطاء مريم

لقب "أم الله" (ثيوتوكوس). فبالنسبة إلى نسطوريوس ليست مريم "أم الإنسان لوحده، ولا هي أم الله، بل أم المسيح. أعني أم الإنسان الذي يسكن الله فيه". فبالنسبة إلى نسطوريوس ليس كيان المسيح واحداً حقاً: فإذا كان إنساناً، يجب أن يكون شخصاً بشرياً، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون شخصاً إلهياً، وإنما تتصل إنسانيته مع الكلمة بنعمة خاصة. لقد عجز نسطوريوس عن تخيل وحدة الإنسانية والألوهة في وحدة المسيح، فأدخل عنصراً ثالثاً في المعادلة وهو النعمة الخاصة المكلفّة بتأهيل قيام هذه الوحدة.

انبرى قورلس الإسكندري بوجه نسطوريوس مدافعاً عن الإيمان: في المسيح ليس الكلمة هو الذي يضمّ إنساناً، بل الكلمة ذاته هو إنسان، وفيه نلتقي بالله. ولما التأم مجمع نيقية (٤٣١) لوضع حد لهذه المشاحنات التي كانت تهدد وحدة الإمبراطورية، لم ينتج أي تحديد جديد، وإنما أضفى المجمع سلطته على بعض كتابات قورلس وأدان نسطوريوس وخلعه عن كرسيه. وبذا كان النصر للفكر اللاهوتي الإسكندري: في يسوع صار الله إنساناً **حقاً**، وفيه اقترب الله **واقعياً** من البشر.

مجمع خلقيدونية (٤٥١)

استمر الأنطاكيون والإسكندريون يتعارضون بالرغم من توقيع الجانبين على وثيقة الاتحاد بينهما. وظهر راهب عنيد في نحو سنة ٤٤٨-٤٤٩ اسمه أوطيخا أخذ بعض عبارات من قورلس دون تروّ، وقال بأنه لم يبق في يسوع، بعد اتحاد الناسوت واللاهوت، سوى الطبيعة الإلهية. فجاء السؤال يطرح نفسه بقوة: إذا كان يسوع إلهاً، فكيف ندعي بأنه لازال إنساناً حقيقياً؟ وإذا ألغي ناسوته،

تعرضت الرسالة المسيحية ذاتها بأسرها للخطر، حيث لا يعود الله من بعد حقاً "الله معنا". وللمحافظة على وحدة الإيمان كتب البابا لاون رسالته الشهيرة "رسالة إلى فلافيانوس" بطريرك القسطنطينية أكد فيها على المعطيات الكبرى للكريستولوجيا.

وانعقد مجمع جديد في سنة ٤٥١ في مدينة قريبة من القسطنطينية تدعى خلقيدونية لوضع توضيحات جديدة لتحديدات الإيمان. فجاءت نصوص خلقيدونية نموذجاً للتوازن كما تشهد على ذلك بنية النص المرفق. يؤكد هذا النص بوضوح على **وحدة** المسيح ("واحد هو، وهو ذاته")، ويركز في الوقت عينه على **التمييز** في الطبائع، أعني على حقيقة اللاهوت وحقيقة الناسوت في المسيح. وسيبقى هذا النص مرجعاً أساسياً للإيمان لدى سائر الكنائس الارثوذكسية والكاثوليكية والبروتستنتية، بالرغم من محدودية بعض عباراته. فهو بتأكيده "على التكوين الذاتي الحميم للفاعل الإلهي-الإنساني، على حد قول و. كاسبر، يقتطع هذه القضية من سياق تاريخ يسوع ومصيره"، ولاسيما من دائرة علاقته مع "أبيه"[٧].

تحديد خلقيدونية

(اقرأ النص بإتباع الأرقام)

إننا، في خط تعليم الآباء، نعترف بالإجماع ونعلّم:

١. ابن واحد هو نفسه
ربنا يسوع المسيح
٢. هو نفسه

٣. كامل في اللاهوت وهو نفسه
٤. كامل في الناسوت
٥. إله حقا وهو نفسه
٦. إنسان حقاً
من نفس عاقلة ومن جسم
مساو لنا في الجوهر

٧. مساو للآب
في الجوهر وهو نفسه
٨. مشابه لنا في الناسوت في كل
شيء ماخلا الخطيئة.

٩. مولود من الآب
قبل كل الدهور
بحسب اللاهوت
١٠. ولكنه في آخر الازمنة
من أجلنا ومن أجل خلاصنا
ولد من مريم العذراء
بحسب الناسوت

١١. مسيح واحد وهو نفسه
ابن ورب ووحيد (Monogène)
عرفناه بطبيعتين

١٢. من دون دمج أو تغيير
ومن دون الغاء
التمييز بين الطبيعتين
١٣.ومن دون تمزيق أو تفريق
التقيتا في شخص واحد

١٤. بسبب الوحدة، بل العكس
بقيت خواص كل من
الطبيعتين سالمة
١٥. وفي شخصية واحدة (Hypostase)
لا انقسام أو تجزئة بينهما
إلى شخصين (parsopa)

١٦. بل ابن واحد وهو نفسه
وحيد (Monogène)، إله، كلمة، رب
يسوع المسيح

كما أعلمنا عنه الأنبياء في السابق
وكما علمنا يسوع المسيح نفسه
وكما أوضح لنا قانون الآباء.

مجمع القسطنطينية الثاني (٥٥٣)

مع مجمع خلقيدونية بلغت العقيدة الكريستولوجية قمتها، ولكنها بقيت بحاجة إلى تأمين ديمومتها المهددة من قبل الإسكندرانيين الذين أرادوا التوفيق بأي ثمن بين تحديد خلقيدونية وعبارات قورلس. فانعقد مجمع جديد سنة ٥٥٣ (القسطنطينية الثاني) لوضع تفسير ذي سلطة عليا لتحديدات سنة ٤٥١. فثبت هذا المجمع بقوة وحدة الطبيعتين في شخص يسوع الواقعي: أي ان الابن الأزلي لله والإنسان يسوع ما هو إلا شخص واحد. ومعنى ذلك ان الفاعل الأوحد لكل التاريخ الإنساني ليسوع، بما في ذلك موته، هو الابن الأزلي ذاته؛ ومن مات على الصليب هو حقاً أحد الثالوث، كما كان ينشد الرهبان السكيتيون في ذلك الزمان. فالله بتجسده لم يقم بمجرد تمثيل.

مجمع القسطنطينية الثالث (٦٨٠-٦٨١)

لم تخمد المشاحنات! إذ لم يزل قوم في الإسكندرية يرفضون المجامع السابقة، معلنين ان في المسيح لا توجد إلا طبيعة واحدة، هي الطبيعة الإلهية: وهذه هي المونوفيزية Monophysisme (أي مبدأ الطبيعة الواحدة). ولكن بعض اللاهوتيين الشرقيين، رغبة منهم في بث روح المصالحة، نادوا بأن ليس في المسيح سوى إرادة واحدة، هي الإرادة الإلهية: وهذه هي المونوتيلية Monothélisme (أي مبدأ الإرادة الواحدة). ولكن استبعاد الإرادة البشرية من المسيح ينال من الحقيقة البشرية ليسوع الذي يغدو، إذ ذاك، مجرد آلة مسخّرة من قبل طبيعته الإلهية. فانعقد مجمع مسكوني جديد في سنة ٦٨٠-٦٨١ (وهو مجمع القسطنطينية الثالث) الذي جدد التأكيد على تعليم خلقيدونية، مطبقاً إياه على الإرادتين: "للمسيح ذاته إرادة إلهية وبشرية تتعاونان معاً لخلاص الجنس البشري". ولقد أراد

المجمع، بتأكيده على الحرية البشرية ليسوع، التركيز على فكرة ان خلاصنا هو ثمرة عمل الله الذي تحقق في نطاق حرية يسوع البشرية وبها.

ترى ما هي عقدة كل هذه الجدالات؟ لقد كان اهتمام المجامع ان تعطي تحديدات دقيقة لهوية يسوع: فيسوع هو حقاً الابن الأزلي للآب (نيقية)، وبه صار الله حقاً "الله معنا" (أفسس). وإذا وجب ان يبقى ثمة فرق جذري بين الله والإنسانية، فهذا الفرق لا يتنافى فيه مع إمكانية دخول الله في علاقة خارجية. فالمسيح، إله حقاً، وإنسان حقاً (خلقيدونية)، وفي حياة يسوع وموته، يبقى الله هو الفاعل (القسطنطينية الثاني)، والخلاص الذي مُنح لنا فيه وبه ناجم عن حريته البشرية (القسطنطينية الثالث).

•

• •

تظهر لنا هذه الجدالات كم كان آباء الكنيسة حريصين على ان يعبروا عن الإيمان بحسب ثقافتهم الخاصة. ولكن بحثهم هذا ظل راسياً دائماً على المعطيات الأساسية للإيمان، وظل همهم ان يشهدوا للخلاص الذي منحه الله بواسطة هذه الشخصية الفريدة، يسوع الناصري، "المصلوب من أجلنا في عهد بيلاطس البنطي".

غير انه، من الأبعاد الثلاثة التي تميز شخصية يسوع (الذاتي والخلاصي والتاريخي)، كان البعد الذاتي هو الذي استحوذ على اهتمام الآباء. بيد ان ذلك لا ينسينا أن فكرة الخلاص هي التي قادت كل البحث اللاهوتي، مما يتيح لنا القول أن أكثر البراهين اعتماداً في هذه الجدالات كان من وحي لاهوت الخلاص بحسب

هذه المقولة: ما لم يستوعبه المخلص لا ينال الخلاص. وبهذا نستحضر البعد التاريخي أيضاً بصورة ضمنية لحدث ظهور يسوع المسيح.

ثانياً: التقليد موضوع معارضة

ليس هدف هذا الكتاب ان يستعرض مجمل تاريخ الإيمان بيسوع، بل ان يتيح للمسيحيين اليوم ان يستوعبوا هذا الإيمان ويختصوه. لذا يحسن بنا ان نطلع على إشكاليات المراحل المهمة التي فيها نشأ قانون إيمان الكنائس. وهناك ظرفان آخران تركا بصماتهما بصورة أساسية على طبيعة البحث في سر المسيح (في الغرب)، وهما: الإصلاح البروتستنتي وعصر الأنوار. مع ان اعتراضات هذين الظرفين ليسا متناظرين: فالإصلاح لم يرفض الإيمان المسيحي، وإنما أراد تجديده. بينما اعترض عصر الأنوار على أية سلطة غير سلطته، بدءاً بسلطة الإيمان. ولقد كانت هذه الاعتراضات علامة الدخول في الأزمنة الحديثة حيث يتجذر عصرنا الحاضر. ومن خلال الجولة التي سنقوم بها في هذه العصور القليلة، سنرى كم من الجهد علينا بذله للوصول إلى فهم حقيقي لموضوع الإيمان.

١. باسم الكتاب المقدس: لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦)

لا يعترض لوثر على التقليد الكريستولوجي، ولكن فكره اللاهوتي يرجع صدى جديداً، لازال تأثيره بالغاً في اللاهوت البروتستنتي المعاصر. ويجدر بنا، لتقييم مساهمته اللاهوتية تقييماً صحيحاً، ان نعيد إلى الأذهان الخطوط العريضة لفكره اللاهوتي، هذا الفكر الذي يرفض أية مرجعية غير الكتاب المقدس: **الكتاب وحده.** لقد كان لوثر إنساناً بالغ التدين[٨]، مما يفسر إحساسه المرهف بسمو الله ومجده،

وشعوره الذاتي الحاد بأنه خاطئ. ومن هذا الشعور يكتشف عجز الإنسان التام عن إمكانية بلوغه الخلاص بذاته. لا أحد يستطيع تحقيق خلاصه بالأعمال، ولا يستحق الإنسان الخاطئ سوى الغضب الإلهي؛ وإذا نال الخلاص، فإنما يناله **بالإيمان وحده** بإله يريده باراً، من دون أي استحقاق من جانبه.

من هذا المنطلق نفهم كل التوجهات الكريستولوجية عند لوثر. فهو، من دون ان ينكر التحديدات المجمعية، يذهب في بحثه من قاعدة فكرة الخلاص. فنحن نعرف النص الشهير المنسوب إليه: "للمسيح طبيعتان، ولكن ما شأني أنا في الموضوع". لا أهمية لما هو المسيح "في ذاته"، إنما الأهمية كلها في ما هو المسيح "بالنسبة لنا": أي حبه، والفداء الذي حققه للبشرية. وهكذا يكون الصليب، الذي يتمحور حوله فكر لوثر اللاهوتي، تعبيراً في الوقت ذاته لحب الله الذي، بالرغم من غضبه على الإنسان الخاطئ، يسلم ابنه لخلاص الخاطئ، ولتضامن المسيح مع الخطأة الذين يحمل عنهم هذا الغضب الإلهي كي يحرّرهم منه.

إن فكر لوثر اللاهوتي هو ردة فعل ضد الفكر السكولاستيكي (المدرسي التقليدي) الذي ذهب في شطحات فكرية حول الصيغة التي تم فيها التجسد وكيف اتحدت الطبيعتان في المسيح، ولكنه أهمل قصة يسوع الواقعية التاريخية والتزامه ضمن التاريخ. يأخذ لوثر بعين الاعتبار إنسانية المسيح حقاً، وواقعه الجسدي والنفسي، والوعي الذاتي الذي كان له عن رسالته (انظر الملحق رقم ٢). ووضع لوثر، كما فعل القديس بولس، مأساة الصليب من جديد في قلب الكريستولوجيا: لا يكشف الله عن ذاته في القوة، بل في الضعف. "إنه يخزي حكمة الفهماء" (١قورنثية ١: ١٨-٣١). ولكن الانتقاص من البعد الذاتي للمسيح (ما هو المسيح في ذاته) يعرض البعد الخلاصي للاختناق، لأنه يتركه على أسس واهية. وهنا نعود من جديد إلى إشكاليات الآباء.

٢. باسم العقل (القرن ١٨ – ١٩)

نظرا إلى محدودية مشروعنا في هذا الكتاب، سنكتفي بذكر بعض الأوجه الأساسية لمفاهيم ما يدعى بعصر الأنوار حول الكريستولوجيا المعاصرة وفهمها. ما هي، إذن، سمات هذا الزمن الفلسفي، المسمّى بعصر الأنوار، الذي نحن بصدده؟

تحرر العقل

عموما يتطابق "سن البلوغ" رمزيا مع ما دعي "بعصر الأنوار"، أي القرن الثامن عشر الذي عرف في ألمانيا باسم "أوفكلارونغ". وتعود جذور هذا التيار الفلسفي إلى عدة مراجع، مثل : النهضة الصناعية والإصلاح البروتستنتي، والاكتشافات الكبرى، وتطور التجارة، وولادة العلم الحديث، ناهيك عن الحروب الدينية التي هبطت بفكرة الدين ذاتها. ففي نظر العالم القديم شكلت هذه التيارات ثورة كوبرنيكية حقيقية قلّبت كل الموازين في النظرة إلى العالم. فبينما كانوا ينظرون قديماً إلى الكون كمجموعة منظمة على مثال عالم آخر ثابت وغير مادي، تسيّره قوانين إلهية، صار ينظر إلى العالم المعاصر كوحدة مستقلة لها قرارها وقوانينها في ذاتها، ولا تمتّ بصلة سوى إلى الإنسان. وبهذا يصبح العالم موضوعا خاضعا للدراسة العلمية، ولا يعود موضوعا للتأمل فقط، بل للتغيير.

لا يُستبعَد الله بالضرورة من هذا المنظور إلى العالم الذي أصبح الإنسان مركزه. ولكن العقل، إذا لم ينف وجود الله حصرا، فهذا الوجود أصبح غير مفهوم لديه. وقالوا إن الله لم يبق سوى إله القلب، إله التقوى والعاطفة، إله لم يعد في علاقة مع الأشياء، بل استقر في عمق الوجدان الإنساني. وذهب بعضهم إلى القول، مثل فويرباخ، بان هذا الإله ليس سوى انعكاس لهذا الوجدان. أما في ما يخص الموقف من يسوع المسيح، فقد ظهرت معالم شروخ عديدة تركت بصماتها حتى على إشكاليات القرن العشرين.

- فمنذ القرن السابع عشر ظهرت دلائل أول طلاق **بين الكتاب المقدس والعقيدة**. وقد حاول باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) في دراسته العلمية للتوراة، وريشارد سيمون (١٦٣٨-١٧١٢) ان يتحررا من وصاية العقيدانية، فأعلنا ان تفسير الكتاب المقدس ليس من شأن السلطة الكنسية، بل يتعلق بالاختصاصات العلمية.

- وحدث الطلاق الثاني **بين التاريخ والعقل** مع ليسينك (١٧٢٩-١٧٨١)، الذي أعلن ان التاريخ لم يعد مرجعاً للحقيقة. فإذا أتاح التاريخ للعقل ان يتقدم نحو الحقيقة، فهو ليس سوى سلّم استخدمه العقل للرقي. أما الآن، وقد بلغ هذا العقل نضوجه، فبوسعه ان يتجاوزه، بل يتحتم عليه ان يفعل ذلك، لأن الأحداث التاريخية الطارئة لا يمكن ان تكون مرجعاً للحقائق الضرورية الوجود. وهكذا لا يمكن لحياة يسوع، الطارئة ككل حياة بشرية، ان تكون قاعدة الحقيقة عن الله الذي هو الضروري الوجود. لذا، لا يمكن أن يكون يسوع، والحالة هذه، أكثر من حكيم أو داعية أخلاقي (كانت).

- وهنا تمت القطيعة الجوهرية، وخلاصتها: **سر المسيح أُفرغ من كل معناه**. فبينما كان لوثر يقلل من قيمة البُعد الذاتي للمسيح، دون ان يلغيه تماماً، جاء العقل في القرن الثامن عشر ليلغي البُعد الخلاصي أصلاً من حياة المسيح. ووصل إلحاح لوثر الأحادي الاتجاه على عبارة "من أجلنا" مات المسيح، إلى اعتبار الإنسان واقعاً تحت توجيه الله المسبق. أما بالنسبة للفلسفة العقلانية، فَيُعتبَر الله واقعاً تحت توجيه الإنسان المسبق، والله امتداداً للإنسان: هذا هو طرح فويرباخ (١٨٠٤-١٨٧٢) الذي يكتب:

"أنا لا أتساءل عما كان أو ماذا يمكن أن يكون المسيح الحقيقي أو الطبيعي إزاء هذا المسيح الفائق الطبيعة الذي هو حصيلة خيال أو تحوّل مفترض.

بالمقابل، أنا أقبل هذا المسيح الديني، ولكني أبرهن بان هذا الكائن المتفوق على الإنسان ليس أكثر من نتاج واختراع صادر عن المشاعر الفائقة الطبيعة للإنسان"[٩].

كشف التاريخ

ونهض اللاهوت البروتستنتي في القرن التاسع عشر في ألمانيا ضد هذه النزعة التي كانت تنسف أسس الإيمان بالمسيح، فأعادت البعد التاريخي إلى الأذهان. وفي سبيل تثبيت الحدث المسيحي وطموحه إلى الشمولية، أعاد هذا النهج اللاهوتي إلى التاريخ قيمته، من دون ان يتخلى عن أي مطلب من مطاليب العقل، ولكن ما حققه في الواقع كان موضوع شك. ولقد أطلق اسم "اللاهوت الحر" على هذا الجهد الذهني الذي تم باسم العقل، وخارجاً عن أي تأثير عقيداني. وفي ما يلي نكتفي بثلاث محاولات في هذا المضمار:

• شليرمارخر (٧٦٨-١٨٣٤):

انطلاقاً من قناعته في ان المسيحية هي "أسمى ديانة في العالم" فكر شليرمارخر في إعادة عصره إليها، ورأى ان أفضل طريقة لذلك هي العودة إلى وجه يسوع الواقعي. فقال: "ان خصوصية المسيحية تكمن كلياً في تمسكها بشخص يسوع الناصري وبالخلاص الذي أتى به. وخصوصية يسوع ذاته تكمن كلياً في عمق وعيه بالله وسمو هذا الوعي". ولأن يسوع هو في شركة تامة ودائمة مع الله، فلقد نال الخلاص أساساً، إذا صح القول، وبما انه لا يحتاج إلى خلاص إضافي لذاته، فبوسعه ان يكون مخلصاً للآخرين: إنه نموذج، وليس مجرد صورة. ويسوق شليرمارخر البرهان التالي: قبل السير في الدرب الدينية التي فتحها يسوع، يكشف يسوع له كيف ولماذا يتحقق الجوهر الإنساني في هذه الوحدة التي تتم مع الله، والتي تسعى الديانة إلى تحقيقها"[١٠].

• **كتب عن سير حياة يسوع:**

حاول مؤلفون عديدون العودة إلى الجذور الأولى للمسيحية عبر التاريخ ليتحققوا من صحتها ويبرهنوا عن صحة ارتباطها بشخصية يسوع. فأخذوا يدرسونها علميا، أي خارجا عن التأويلات العقائدية التي طرحها العهد الجديد. ووضع هؤلاء المؤلفون البعد التاريخي في المقام الأول، هذا البعد الذي كان ليسينك قد رفضه. ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل كما أظهر ألبيرت شوايتزر في كتابه "تاريخ البحث في سير حياة يسوع" (١٩١٣). ذلك أن كل مؤلف كان يبتكر وجهاً خاصاً يتصوّر به يسوع.

• **أسطورة واقعية:**

وجاء د. ف. شتراوس (١٨٠٨- ١٨٧٤) وأبدى الاهتمام نفسه في العودة إلى التاريخ، ولكنه نظر إلى الأناجيل كتجسيد واقعي للفكرة السابقة على يد الجماعة المسيحية. فلقد ركّز على البون الفاصل بين يسوع التاريخي ومسيح الأيمان، موضوع الفكرة المثالية. فبينما كانت الطروحات السابقة تنسب إلى المؤلف فكرته الخاصة عن يسوع، جاء الطرح الجديد لينسب هذه الفكرة الخاصة مسبقا إلى الجماعة المؤمنة الأولى، وتبقى مهمة الخبير التاريخي أن يكتشف الصورة الأصلية بدراسة أوضاع هذه الجماعة ذاتها. ستؤيد مدرسة تاريخ الصيغ (Formgeschichtscule) هذا الإتجاه الذي اتخذته الجماعات المسيحية في صياغة الأناجيل، ولكن هذه المدرسة لن تستنتج من ذلك أن المسيح ليس سوى فكرة مثالية، أو أسطورة خلقتها الجماعات المؤمنة الأولى.

•

• •

لقد حاول آباء الكنيسة في حقبة تكوين التقليد العقائدي أن يعبّروا عن السر بقبوله، في مرحلة أولى، كوحي من الله، ومن ثمّ بعيشه كخبرة خلاصية. أما في العصور الحديثة فلقد وضع الإنسان يده على العالم وصار يعي ذاته وإمكاناته. ومن هذا الوعي الذاتي ظهرت مطالبات العقل الإستقلالية ورفض كل سلطة خارجية. ولقد سبق لوثر أن نقل مركز الثقل نحو الإنسان وقضية خلاصه، وإن بقي إيمانه حيا وخاضعا لكلمة الله. أما في عصر الأنوار، فلم يعد الله سوى كلمة خافتة تتراجع أمام الإنسان. وفي هذا المنظور لم يعد ثمة في الواقع أية كريستولوجيا، لأن كلمة الله أُفرغت من كل سلطة.

لذا حدث انزلاق مذ ذاك أودى بكل ثنائية حين تعلّق الأمر بشخص يسوع المسيح، وظهرت ثنائية جديدة ذات محور مزدوج يتقابل فيه قطبان إثنان هما التاريخ (يسوع) والفكرة المثالية (الله) من جهة، أو التاريخ والمعنى (الإيمان) من جهة أخرى. ولقد اتخذت هذه المحاور والتضادّ بين قبول التاريخ **أو** قبول الأيمان؛ بين يسوع التاريخي **أو** مسيح الإيمان. وهكذا فقدت الكريستولوجيا جميع أبعادها، الواحد تلو الآخر، في خضمّ هذه العصرنة : أي البعد الذاتي، والخلاصي، والتاريخي. واليوم تحاول الكريستولوجيا المعاصرة أن تعيد تكوين هذه المجموعات بمحاولة احتواء الثقافة الجديدة التي يتحكم بها العقل.

هذا التوجه، ستتكفل به البروتستنتية. ففيما تستمر الكثلكة في رفض فكرة الطلاق بين الإيمان والعقل، وما ينتج عن هذا الرفض من استمرارية الإشكالية حول صيغة الوحدة القائمة بين آلوهة الكلمة المتجسد وناسوته، ألقت البروتستنتية بكل ثقلها في طريق الحداثة. وكانت النتيجة، بالنسبة للكثلكة التي ضاعفت نقاط تأخرها، أن واجهت صدمة حقيقية إزاء العصرنة في بداية القرن العشرين مع أزمة الفكر الفلسفي العصراني.

إلا أن الفكر اللاهوتي الكاثوليكي فتح تيارا من الحوار الدائم مع الفكر اللاهوتي البروتستنتي منذ الستينات من القرن الماضي، ولا زال تأثير اللاهوتيين البروتستنت الكبار، أمثال بولتمان وباننبرك وغيرهم، كبيرا عليه.

الأزمة العصرانية
Modernism

إن جوهر العصرانية كامن في الحالة التالية: رجال قلقون من تكرار التأخر الذي وقعت فيه الكنيسة إزاء التقدم العلمي؛ رجال (من مؤرخين ونقاد ولاهوتيين) متأثرون ومندهشون بالفلسفة الألمانية، لاسيما فلسفة كانت التي أغلقت الباب بوجه النظام الميتافيزيقي، أي الفكر الذي يعالج البعد ما فوق الطبيعة؛ فلسفة ورثة كانت، من تلاميذ وشرّاح، ممن أنشأوا تيار المثالية الألمانية (فيخت، شوبنهاور، شبيلنك، هيجل) الواقعين هم أنفسهم تحت تأثير النصوص الصوفية الهندية القديمة الكبرى، والذين تغذوا من تيار الفلسفة الأفلاطونية... رجال مطّلعون تماما على الجهود التي بذلها التيار الوضعي **(Positivism)** الذي لا يقبل إلا الحدث الإختباري، ويستبعد البحث عن الأسباب؛ التيار الذي يأخذ بالاكتشافات العلمية المساعدة عن طريق علم التاريخ، وهذه الاكتشافات التي تقود إلى طرح الشك في المحتوى التاريخي للكتب المقدسة: هؤلاء الرجال يتساءلون إذا لم يكن البعد الفائق الطبيعة غريباً عن الفلسفة ومرفوضاً من قبل التاريخ.

(مقتطف من: ي. مارشاسون. مقال عن "العصرانية" في قاموس الديانات. المطابع الجامعية الفرنسية puf ١٩٨٤ ص ١١٢٣).

ثالثا: بحوث معاصرة

كيف نتبنى اليوم البلاغ الإيماني بيسوع ابن الله؟ أيمكن البقاء أمناء للتقليد الذي نقلته المجامع الكريستولوجية الكبرى، مع الأخذ بعين الاعتبار الفروقات الثقافية التي تفصلنا عنها؟ هذه الأسئلة ينبغي ان تسترعي انتباهنا. وسنبحث أول الأمر موضوع الطرق الراهنة للكريستولوجيا، المتأثرة هي ذاتها بالجدل حول موضوع لاهوت التحرير، على الأقل في الغرب. بعد ذلك سنطرح مقترحين، الأول يخصّ موضوع "بنوّة" يسوع، والثاني يتصل بمعرفة المسيح، أي بوعيه الذاتي وحريته، أعني، بكلمة واحدة، "بفعله البنوي".

١. طرائق علم اللاهوت الكريستولوجي

لقد كانت الكريستولوجيا في بداية القرن العشرين، كما أسلفنا، مفككة إلى حد ما. وإننا نلاحظ فيها شروخاً عدة مميتة، منها:

- شرخ قائم بين الدراسة البيبلية والدراسة الكريستولوجية منذ القرون الوسطى، وذلك من جراء الاتجاه الأحادي المهيمن على الفكر الميتافيزيقي، أي الخاص بعالم الفائق الطبيعة؛ ثم من جراء العلوم البيبلية التي قامت منذ نشأتها على استقلالية ذاتية إلى حد ما.

- شرخ آخر بين وحي يكشف الله فيه عن ذاته بيسوع المسيح وفيه، وبين بحث إنساني لا يقبل أية سلطة غير سلطة الإنسان، ويكاد هذا التيار لا يعتبر الله سوى انعكاس للذات الإنسانية.

- أخيرا، هناك شرخ بين يسوع التاريخ، الذي يُعتَبر الله-معنا وينبوع خلاصنا، وبين مسيح الإيمان، الذي له بُعدٌ شموليٌ وحاضرٌ اليوم.

لا ينبغي أخذ هذه الشروخ من زاويتها السلبية ليس إلا، فلقد ألقت الضوء على جوانب مهمة لا يمكن لأي بحثٍ كريستولوجي ان يتجاهلها. ولقد كانت ضرورات العصرنة هي الدافع لقيام الأبحاث الكريستولوجية في القرن العشرين، علماً بأن هذا النشاط نشأ أولاً في أرضٍ بروتستنتية، ثم دخل العالم الكاثوليكي منذ الخمسينات من القرن الماضي. ولما جاءت الاحتفالات بالذكرى المئوية الخامسة عشرة للمجمع الخلقيدوني سنة ١٩٥١، كان تجديد البحث اللاهوتي الكريستولوجي الكاثوليكي في عزّ انطلاقه، وان كان هذا التيار قد أُعدَّ منذ زمن طويل، لاسيما عن طريق تجدد الدراسات البيبلية والآبائية، وميدانياً عن طريق حركات التجديد الرسولية والليتورجية.

مبادرة الله (كارل بارث Karl Barth)

بإمكاننا نسبة هذا التيار التجددي إلى اللاهوتي كارل بارث (١٨٨٦-١٩٦٨). فمنذ غداة الحرب العالمية الأولى وضع هذا اللاهوتي كلمة الله في الواجهة، مكتسحاً أبحاث اللاهوت التحرري، ودفع إلى المواجهة كلاً من المفهومين التاليين: "إصرار اللاهوت بشكل لا يقبل التراجع على فكرة أن الله يسيّر الإنسان، وإصرار الفلسفة بشكل قاطع أيضاً على ان الإنسان يتحكم بالله". أو كما يقال في التعبير الألماني: مواجهة الاستنارة بالعقل مع الاستنارة بالإنجيل[١١]، مؤكداً أن الإيمان بالله لا مرجع له سوى كلمة الله. وهكذا أعلن إقرار مبدأ لاهوتي يرفض كل مساومة مع العالم أو مع العقل البشري، ويعيد الله من جديد إلى أن يتحدث هو بنفسه. فلقد كتب كارل بارث:

"عندما يتعلق الأمر بهذه المسألة الكبرى، أي بالعلاقة ما بين **الله والإنسان**، لا نحاولنّ ولوجها أو فهمها مسيحياً إلا بالعودة إلى يسوع المسيح **فقط**، مع ما في

هذه القضية من عوامل الدهشة، وفي هذه المحاولة من مخاطر جادة للانزلاق في الخطأ. ولا جواب لنا في هذه الإشكالية سوى يسوع المسيح. كما إنه لا يسعنا فهم العلاقة بين الخليقة والمخلوق والوجود، من جهة، وبين الكنيسة والفداء والله، من جهة أخرى، انطلاقاً من تاريخ الأديان وحده، بل انطلاقاً من العلاقة التي نقرأها في شخص يسوع المسيح فقط"[١٢].

بحث الإنسان (رودولف بولتمان Rudolf Bultman)

فيما أهمل كارل بارث، إلى حد ما، الوسائل البشرية للوصول إلى الله، بما فيها المسيرة التاريخية ليسوع، جاء ر. بولتمان (١٨٨٤-١٩٧٦) ليركز على البعد الإنساني الانتروبولوجي للإيمان، بحيث اتهموه بالعودة إلى اللاهوت المتحرر العقلاني الذي ظهر في القرن التاسع عشر. ولكن كلا من بولتمان وبارث يقولان بعجز البحث الإنساني وحده عن تثبيت موضوع الإيمان. ولكن، بينما يوجه بارث اهتمامه بموضوعية كلام الله، يضع بولتمان نفسه إلى جانب الفاعل، أي المستمع إلى هذا الكلام، فيتساءل: أيمكن لإنسان القرن العشرين أن يؤمن بهذا الكلام؟

وفي سبيل إيصال كلام الله بصورة مفهومة إلى معاصرينا توصل بولتمان إلى معالجة مزدوجة: فمن جهة رأى ضرورة تفسير الكتاب المقدس بأساليب جديدة تتجاوز الصيغ الواردة فيه عن العالم وتصورات ما قبل العلم. ويسمي بولتمان هذه العملية مرحلة نزع السمة الأسطورية من النص الكتابي (Démythologisation). من جهة أخرى يرى ضرورة بذل جهد أكبر لاستيعاب النص في ظروف كتابته: فالمرء لا يستطيع استقبال كلام الله إلا بموجب المفهوم الذي يحمله هو نفسه عن وجوده الذاتي. ولن يكون لكلام الله من معنى ما لم يقرأه المؤمن على ضوء تحديات حياته إزاء الموت وإزاء اللامعقول.

وهنا نرى أنفسنا حيال جهد لاهوتي يذكرنا بلوثر: فما يهم الإنسان ليس المسيح في ذاته، أو في طبيعته، ولا حتى في تاريخه الشخصي الواقعي، بل في ما يعنيه "المسيح لي أنا". وهنا نعود ثانية إلى الإشكالية ذاتها التي طرحت في القرن التاسع عشر، ألا وهي المواجهة بين يسوع التاريخ ومسيح الإيمان، وما ينتج عنها من فك ارتباط بين التاريخ والرسالة: بذلك نصل إلى ان البعد الخلاصي، وهو البعد الوحيد الذي يهم الإنسان في الواقع، يغيّب البعد الذاتي (أي ما هو المسيح في ذاته) والبعد التاريخي (أي ما فعل وعاش يسوع واقعياً) في آن معاً، إلى حد ما.

في الجانب الكاثوليكي قد تجد طرحاً مماثلاً في كريستولوجيا كارل راهنر Karl Rahner (١٩٠٤-١٩٨٤)، وان اختلفت الظروف تماماً. فكارل راهنر يهتم أيضاً بالإنسان وخلاصه، ويتساءل عن الظروف الملائمة التي تعده لاستقبال هذا الخلاص. وإليك خلاصة فكرته الأساسية: "قبل ان يعبّر الله عن نفسه في وجه يسوع التاريخي، قدم ذاته بصمت على انه المطلق والسر الأقدس. ولقد أتاح هذا الحضور الصامت للإنسان ان يسمع بلاغ الله عن الوجود، عندما كشف الله عن ذاته بيسوع المسيح"[١٣]. سنعود إلى كارل راهنر لدى الحديث عن الكيان البنوي ليسوع.

وجه يسوع

بقي لنا ان نضع قصة يسوع في سياق البحث الكريستولوجي. ولقد كان أفضل من اجتهد في هذا الاتجاه هو اللاهوتي البروتستنتي و. بانبرغ W.Pannenberg، وإن بالغ أحياناً بربط الإيمان في تبعية البحث التاريخي، على ما يبدو. يقول بانبرغ: "للحصول على فهم حقيقي ليسوع، ينبغي ان تعتمد الكريستولوجيا على قصة حياة يسوع ذاتها، هذه الحياة التي توجز بالكلمات التالية: الله تجلى في هذا الإنسان[١٤]. من جانب آخر كان ينبغي للتحليل المتكامل

لحدث يسوع المسيح التاريخي ان يفتح الطريق أمام الإيمان مباشرة. قد يؤخذ على باننبرغ انتقاصه من مجانية الإيمان ومن حرية قبوله. ولكن البحث اللاهوتي مدين له بتمييزه بوضوح بين ما عاشه يسوع وما عاشته الجماعة الرسولية: وبين الحالتين ارتباط وثيق لا انفصام فيه.

الخلاصة هي ان كلاً من هذه الاجتهادات مفتوح على الآخر. فميزة نظرة كارل بارث هي انها ركزت على مجانية مبادرة الله والحرية المطلقة التي جاءت فيها، بينما بدت نظرة كارل راهنر منتقصة من هذه الأهمية. ولكن راهنر طرح فكرة قوية، في المقابل، حين أشار إلى ان الله وضع في الإنسان عندما خلقه الرغبة في اكتشاف وجهه تعالى. فبوسع الإنسان ان يكتشف هبة الله بيسوع انطلاقاً من استعداده للبحث عن المعنى، وهذا الاستعداد هو في قلب وجود الإنسان. إن التعمق في معرفة وجه يسوع الواقعي لا يقلّ أهمية عن هذه الطروحات. ذلك ان التعرف على وجه يسوع المسيح الواقعي يثير الرغبة في معرفة الله، وفيه يكشف الله عن ذاته. في هذا الاتجاه نفسه صبّت مساهمة باننبرغ. بقي ان نبرهن على ذلك.

٢. الكيان البنوي ليسوع

لقد اشرنا إلى إهمال التجديدات المجمعية التركيز على مسيرة الناصري وخبرته البشرية، مما أضعف مفهوم التزام الله في التاريخ، أقلّه على صعيد التعبير اللفظي. وليست القضية في هذا النقص التعبيري، وإنما في الجانب الفكري والثقافي للمفاهيم. فعلينا اليوم ان نعبر عن الحقيقة ذاتها بشكل آخر. وللحديث عن الكيان البنوي ليسوع سننطلق من قاعدة التزام الله عبر التاريخ، على نحو ما يتكلم اللاهوت المعاصر. ونفترض بادئ ذي بدء قبول ما يسمى اليوم "بألم الله"، إذا صح القول. سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.

ان الحديث عن "التألم" عندما يتعلق الأمر بالله، معناه ان بإمكان الله ان "ينفعل"، على نحو ما؛ انه قابل "للتأثر" في التزامه في قلب التاريخ البشري؛ ان شيئاً جديداً يمكن ان يحدث له. ان جميع هذه العبارات مستقاة من وثيقة صادرة عن اللجنة اللاهوتية الدولية التي تحتل موقعاً رسمياً جداً في الكنيسة الرومانية. فإذا كان الله هو المطلق، فهذا المطلق يمكن أن يتألم حباً وبكامل حريته. لهذا المطلق إمكانية الخروج عن ذاته: هذا هو المنحى الذي أخذ به كارل راهنر. فلقد انطلق راهنر من يوحنا ١: ١٤: "الكلمة صار جسداً" ليرى في التجسد قمة الخليقة، وأخذ على محمل الجد ان يكون الله قد **صار** إنساناً، وقبل النتائج الناجمة عن ذلك. وإليك زبدة ما توصل إليه راهنر:

ان الدائم في ذاته، الله، له القدرة في "الصيرورة" عن طريق جعل الآخر كصورة أخرى لحقيقته الذاتية. ففي فعل تجردٍ حرٍ عن ذاته يقيم الله كائناً متميزاً عن ذاته (الإنسان)، ويجعله خاصته (يسوع الإنسان هو إله). ان فعل الخلقة ينيرنا على فهم هذا الأسلوب في التعبير. ففي الخلقة يقيم الله **آخر** (الخليقة) متميزاً تماماً عن ذاته، وبالرغم من كون هذا الآخر مرتبطاً بالذي خلقه، فهو يتمتع باستقلاليته الذاتية. وبقدر ما يكون الارتباط بالله جذرياً، كما هو الحال للإنسان المخلوق على صورة الله، بقدر ذلك تكون الخليقة مستقلة ذاتياً وحرة. أما التجسد فيمثل قمة الفعل الخلاق: فهناك قربى جذرية مع الله، حيث ان يسوع هو إله، وهناك استقلالية ذاتية لا تقل جذرية، حيث ان يسوع هو إنسان حر يتكلم باسم ذاته: "أنا أقول لكم!".

وهكذا يجعل الله في التجسد صورة لذاته الحقيقية مما هو متميز عنه. ان هذا المنظور يختلف عما ألفه آباء الكنيسة الذين صبوا اهتمامهم في التعبير عن وحدة الإلهي والإنساني في شخص يسوع. أما ميزة فكرة راهنر فهي انها جمعت ما

فصله اللاهوت الكلاسيكي، أي الخلقة والتجسد والخلاص، واتاحت الحديث بشكل أفصح عن "تألم" الله والتزامه في تاريخ الخلاص.

في ربط الخلقة والتجسد، فتح راهنر طريقاً أفضل لاستيعاب فكرة "صيرورة" الله و"قبوله التألم"، ولكن ما لا يعكسه راهنر في بحثه اللاهوتي بشكل واضح هو الوحدة الواقعية التي تربط الابن بالآب، كما تعكسها الأناجيل. لنتعمق الآن في فكرة راهنر حول هذه النقطة:

للحديث عن سر البنوّة الإلهية التي عاشها يسوع في واقع الحال، بحسب فكر كارل راهنر، ننطلق من فكرة أولية تصورها راهنر ما بين كينونة يسوع إنساناً وإبناً معاً. فأن يكون المرء إنساناً معناه ان يقبل كيانه من الله كياناً مختلفاً ومستقلاً عنه، ولكن مع الاعتراف بهذه المرجعية. وكذلك الأمر مع الابن حيث يقبل كيانه من الآب كياناً مختلفاً ومستقلاً. والخلقة ذاتها تعني قبول العلاقة التي تأخذ جذورها من عند الخالق. ففي هذه العلاقة يعيش يسوع إنسانيته، ويعبّر عن علاقته الأزلية مع الآب. ان العلاقة بين الإنسان والخالق يعيشها الإنسان في حالته ككائن مخلوق، ولن تبلغ اكتمالها إلا في الموت. فما عاشه يسوع كابن أزلي ينكشف ويتحقق في قصة حياته الإنسانية، ولكن هذه البنوة لم تبلغ قمة كمالها بصورة نهائية إلا في فصحه.

ان الهدف من طرح هذه المفاهيم ليس لمجرد الرغبة في طرح أفكار جديدة بأي ثمن، وإنما استجابة لمتطلبات البحث المعاصر في إعطاء التاريخ وخبرة يسوع ذاتها حقهما من الاهتمام. فهذه الطروحات تقود إلى رؤيا دينامية للتجسد، لأن التجسد، بالنسبة إلى الله، يعني قبوله الدخول في تاريخ ما، أي الدخول في زمن إنساني، والمشاركة في صيرورة هذا الزمن. "فيسوع أيضاً، ككل إنسان، كان في

مسيرة نحو تحقيق كيانه البنوي الراسخ فيه.. ان كيان يسوع كابن، كان يعني كيانه كابن في صيرورة"[١٥].

٣. الفعل البنوي عند يسوع

ان الأفكار السابقة هي بمثابة مفاتيح لبحث المسألة المتعلقة بالفعل البنوي عند يسوع، وهي مسألة عويصة، إذ ان عدداً من المسيحيين يبدون دوسيتيين ضمناً عندما لا يأخذون إنسانية يسوع على محمل الجد تماماً؛ مع ان الكتاب المقدس يقول بأنه "صار شبيهاً بنا في كل شيء ما خلا الخطيئة" (عبرانيين ٤: ١٥). فإذا بحثنا عن الكمال في إنسانية يسوع، لن نجدها على صعيد "طبيعته البشرية" كما كان يفكر اللاهوتيون السكولاستيكيون، لأن لا وجود للكمال في "طبيعة بشرية"؛ وفي هذا الباب هناك مسألتان تستحقان اهتمامنا وهما: وعي يسوع وحريته.

وعي يسوع

ان مسألة وعي يسوع طرح معاصر يختلف عن مسألة معرفة يسوع التي وحدها كانت تسترعي اهتمام اللاهوت الكلاسيكي. فبحسب هذا اللاهوت كانت معرفة يسوع تنبع من الوحدة الجوهرية الإلهية. فكانوا ينسبون العلم الكامل إلى يسوع بسبب طبيعته الإلهية، وينسبون إليه رؤيا الطوباويين منذ هذه الحياة، وبذلك يزجون أنفسهم في مأزق حدوده البشرية. أما اللاهوت المعاصر فهو أقل طموحاً، ويعتبر ان الحديث عن وعي يسوع وعلمه يجب ان يتحدد بما تنقله الأناجيل من شهادة. ومن الأناجيل نستنتج عنصرين أثنين:

جهل يسوع: تذكر الأناجيل صراحة ان يسوع كان يجهل (متى ٢٤: ٣٦...) مصير رسالته، أي "ساعة مجيء الملكوت". وتذكر الرسائل وقصة الآلام ان يسوع، مع كونه ابن الله ومتسامياً على الملائكة، لا يعرف كل شيء، ويسلم

أمره للآب في فعل طاعة تامة (فيلبي ٢: ٥-١١؛ عبرانيين ٥: ٧-١٠؛ ٢: ١٠). وإذا كان تواضع المسيح وموته على الصليب شكاً لنا، ويمس الصورة التي تنسجها أفكارنا عن الله، فمن شأنهما ان يدعانا نكتشف الوجه الحقيقي له: وجه إله هو حب. يسوع إنسان حقيقي وقد لاقى الإخفاق: فلقد صرح بأنه لم يستطع القيام ببعض العجائب (مرقس ٦: ٥)، وانه لم يستطع جمع أبناء أورشليم (متى ٢٣: ٣٧). ومع هذا الإخفاق وبالرغم منه بقي أميناً، وبقي رجل الإيمان الذي قبل ذاته كهبة من أبيه الذي له الملك وإليه يعود تحقيق المخطط الخالق والمخلص.

سلطة يسوع: ينبغي ربط هذا الجانب حول جهل يسوع بحالة أخرى من حالات يسوع، ألا وهي سلطته الفائقة. فإذا كان ثمة حالات جهل في حياة يسوع، فثمة أيضاً حالات من الوعي الوطيد بأنه يفوق كل وساطات العهد القديم (الشريعة، الهيكل، الملائكة). انه يقدم نفسه بمثابة **ممثل الله، وحامل كلمته، وعائش في حميميته** (أبا). ان غياب المعرفة يمكن ان يتوافق مع الوعي العميق بالرسالة الخاصة. ويسوع لم يكن بحاجة إلى معرفة تفوق البشر كي يكون على وعي فائق برسالته.

وهكذا لا يتنافر هذان القطبان المتقابلان، أي الجهل والسلطة، بل ينبغي الربط بينهما إذا ما أردنا ان نكون منصفين مع سر يسوع. فيسوع، من حيث هو ابن الله، يقبل ذاته بكاملها من الآب إلى حد التألم والتمزق والليل (الجتسمانية، الجلجلة)، وذلك لأنه الابن، وبسبب هذا العنوان لا يقبل سلطته من أية وساطة بشرية. عندما يقول "أنا"، كشخص الهي، يعني ضمير المتكلم "أنا" إلهية حقاً. ولكن هذا "الأنا" الإلهي بتجسده حقاً، يبقى خاضعاً لقوانين المعرفة والإرادة البشريتين، مع كل ما يعني ذلك من إمكانات، ومن ظلمات أيضاً. يقول لوقا عن

يسوع بأنه "كان ينمو في الحكمة والقامة" (٢: ٥٢)، دون ان يقتصر هذا النمو على ما هو للجسد فقط.

أربعة مقترحات من اللجنة اللاهوتية الدولية

حول وعي المسيح

(ك ١ سنة ١٩٨٥)

١. تشهد حياة يسوع بأنه كان واعياً بعلاقته البنوية مع الآب. وتتضمن تصرفاته وأحاديثه التي هي تصرفات وأحاديث "العبد" الكامل سلطة تتجاوز سلطة الأنبياء القدامى التي كانوا ينسبونها إلى الله وحده. أما يسوع فكان يجد هذه السلطة الفريدة في علاقته المتميزة بالله الذي كان يدعوه "أبت". فلقد كان على وعي بأنه ابن الله الوحيد، ومن ثم بأنه هو نفسه الله.

٢. لقد كان يسوع على علم بهدف رسالته، ألا وهو إعلان ملكوت الله وجعله حاضراً من الآن في شخصه، وفي أعماله وكلامه، لكي يصالح العالم مع الله ويجدده. لقد قبل إرادة الآب بحرية؛ وهي ان يهب حياته من أجل خلاص جميع البشر، لأنه كان يعلم انه مرسل من قبل الآب ليخدم ويعطي حياته "من أجل كثيرين" (مرقس ١٤: ٢٤).

٣. وفي سبيل تحقيق رسالته الخلاصية، أراد يسوع جمع البشر من أجل الملكوت، وأراد جمعهم حواليه.. وفي سبيل هذا الهدف، قام يسوع بأعمال خارجية، لو أخذناها في مجملها، لا تتحمل سوى تفسير مقبول واحد وهو إعداد قيام الكنيسة التي سيتكرس بنيانها بصورة نهائية في أحداث الفصح والعنصرة. لذا من الضروري ان نقول بأن يسوع أراد تأسيس الكنيسة.

٤. ان الوعي الذي كان للمسيح في انه مرسل من قبل الآب من أجل خلاص العالم، ومن أجل جمع البشر قاطبة في شعب الله يتضمن، بصورة سرية، حب جميع البشر، بحيث يمكننا أن نقول جميعاً: "لقد أحبني ابن الله وبذل نفسه من أجلي" (غلاطية ٢: ٢٠).

(عن مجلة "الوثائق الكاثوليكية" عدد ١٩٢٦ في ١٩ ت١ سنة ١٩٨٦، ص ٩١٦-٩٢١. وتحمل الوثيقة شرحاً لكل من هذه المقترحات).

حرية يسوع

ان يسوع إنسان حر تماماً في قراراته. ومن المفيد جداً ان نشير إلى ان خضوع يسوع التام لله منسجم في حياته مع حريته الكاملة. ان يسوع لم يستند على سلطة أخرى لإثبات سلطته، بل يتكلم كمن يملي الشريعة هو بنفسه، مع انه لا يحيا إلا من إرادة الآب. ان هذا التضاد الظاهري يعكس ما رآه آباء مجمع القسطنطينية الثالث حين أعلنوا ان المسيح، من حيث هو ابن حقيقي لله، يأخذ إرادته كاملة من إرادة الآب، ومن حيث هو إنسان حقيقي، يتمتع بحرية كاملة وتامة. وهذا ما حدا بأحد اللاهوتيين، يدعى كريستيان ديكوك، أن يقدم لاهوتاً كريستولوجياً بعنوان "يسوع إنسان حر".

غير أن هذه الحرية البالغة لا تدع يسوع متردداً بين اختيارات عدة، فهو المتأصل في إرادة الآب، والحاضرة فيه كلمة الله أبداً، لا يتردد في اتخاذ الطريق الصائب، لا في أفعاله، ولا في أقواله. ان يسوع لم يعرف الخطيئة، وفي استعداده الدائم لسماع إرادة الآب، وفي شركته التامة معه حقق في ذاته دعوة آدم بصورة تامة، أي دعوة كل إنسان عندما لا يبتعد عنها في واقع أعماله. فيسوع إنسان واقف أمام الله في تمام الحرية وفي حالة الامتنان تجاه من يهبه الحياة؛ ومن جهة أخرى انه إنسان بكامل بنوته، وبإمكان كل إنسان أن يقرأ إرادة الله عليه، أي أن يكون على صورة هذا الابن الحبيب، "فينال" بذلك إنسانيته الكاملة. وهكذا يكون يسوع صورة الخلاص بشكل أسمى.

•

• •

إن الله يعطي لذاته وجهاً في شخص يسوع. وهذا الوجه هو وجه رجل يهودي تتحقق فيه دعوة شعبه، والأمم جميعها مدعوة لأن ترى فيه وجه الله اللامنظور. ترى، كيف يمكن القبول بمثل هذا التناقض؟ أليس أكبر شك لليهود ان يدع الله اللامنظور، وأصل كل شيء وغاية كل شيء، أن يدع الآخر يلتقي به مباشرة في شخص هذا الإنسان الذي عاش ومات في عهد بيلاطس البنطي؟ ألا يعتبر العقل اليوناني ذلك جنوناً؟ أما للمسيحي فهذا هو السر الذي ينبغي أن يقبله.

لقد قبل التلاميذ هذا السر وكرّسوا له حياتهم. وعمل العقل المسيحي على سبر هذا السر واجتهد في "تحديده"، لا لكي يغلق عليه في صيغة فكرية تزعم الكمال، وغير قابلة للتعديل، بل لتثبيت قواعد اللغة المبتكرة خصيصاً لاحترام السر وللحفاظ على وحدة الإيمان بين الكنائس. لاشك أن الناس يميلون دوماً إلى استدراج اللامنظور إلى خانة المحسوس جداً، سواء تكلمنا في أجواء العالم اليوناني، حيث تدخل الآلهة البعيدة في علاقة مع البشر عن طريق وسطاء هم أنصاف آلهة وأنصاف بشر، أم في إطار الفكر العقلاني الذي لا يقبل حقاً إلا ما خضع للاختبار. وفي الحالتين نحن أمام إله على صورة البشر: إله لم يعد أيقونة، بل صنماً كما ذكر لوثر منوّهاً.

إن أيقونة الله اللامنظور نراها على وجه يسوع: وجه إنسان حقيقي يتجلى فيه حنان الله، ولكنه وجه مشوّه أيضاً لأنه وجه مصلوب. هذا هو الوجه الذي ينبغي أن نتأمل فيه، لأنه وجه مخلّص كان لنا ينبوع خلاص حتى في موته.

(٣)

"المسيح المصلوب"

الله يخلصنا بيسوع المسيح

"إننا ننادي بمسيح مصلوب.
ما هو ضعف من الله، هو
أقوى من الناس"
(١ قورنثية ١: ٢٣-٢٥)

إن بعد الخلاص الذي بحثناه في الفقرات الأخيرة حاضر في ذهننا منذ بداية مسيرتنا. فالتجربة الفصحية هي تجربة خلاصية أساسا، ونحن على يقين، بفضل هبة الروح القدس، أن ما تمّ بالمسيح بكرنا سيتجلى في جميع الذين سيستقبلونه لدى تحقيق ملكوت الله. لقد ولدت الكنيسة من هذه التجربة التي ستبقى محك بحثها المتواصل. ولقد رأينا أيضا أن قاعدة الخلاص كانت نقطة الارتكاز الأساسية التي بنى عليها الآباء عندما كانوا يبحثون عن هوية يسوع في علاقته مع الآب.

أما نحن الآن، فسنركز على وجه أساسي من أوجه شخصية يسوع، يميز المسيحية عن غيرها من الديانات، فالأيمان المسيحي يزعم فعلا أن البشر نالوا الخلاص بموت المسيح. ان هذا الكلام، على شهادة بولس نفسه، هو "شكّ لليهود وجهالة عند اليونانيين"، أما للمسيحيين فهو تعبير عن إيمانهم العميق : "ان المسيح، إذ كنا خطأة، مات من أجلنا" (رو ٥: ٨؛ ١ قورنثية ١: ١٨- ٢٥). هكذا إذن، لشرح دعائم هذا الإيمان، سيدور بحثنا حول ثلاث عبارات أساسية تعبّر عن مقوّمات هذا الخلاص، وهي: **المصالحة، والفداء، والوحي** (ملحق رقم ٢).

أولا: المصالحة

تقدم المسيحية نفسها، مثل سائر الأديان، على أنها طريقة للخلاص، أي انها جواب إلى أعمق طموحات البشر وأبلغها رسوخا في وجدانه. والخلاص يوحي

أول ما يوحي بالنجاة من خطر داهم، كما يفترض تدخل شخص آخر، وغالبا ما يعتبر هذا التدخل عجائبياً. فمن قال "خلاصا"، قال "مخلّصا" أيضا، وليس منقذا حسب. ومع ذلك فمفهوم الخلاص المسيحي يتعدى هذه الصورة الأولية.. ليصل إلى مفهوم التحرر **من** .. بل إلى مفهوم التحرر **من أجل** ... ان الرجاء بالخلاص -ونستخدم هنا عبارة "الخلاص" في صيغة المفرد- يحمل في ذاته ملءً لا يقوى الإنسان على الحصول عليه من ذاته، وذلك لكون الخلاص حقيقة مطلقة غير قابلة للتجاوز: من هنا نفهم حاجة الإنسان إلى آخر. لذا لا يمكن للإنسان أن يتنكر لهذا الرجاء من دون أن يتنكر لذاته بوصفه كائنا مجبولا على الرغبة وتجاوز الذات.

لا شك أن هذه الطموحات البشرية غير خالية من التعقيد، فالإنسان يحلو له أن يتخيّل ذاته "كائنا مليئاً"، مما يجعله يرفض حالة النقص والانتهاء والموت. وينتمي الخلاص الذي يصبو إليه الإنسان إلى هذا الحلم الأحمق الذي لا ينى يستنكره الإلحاد المعاصر معتبرا إياه مجرد وهم. إلى جانب ذلك، يتضمّن اللجوء إلى آخر لنيل هذا الإكتمال -حتى لو كان هذا الآخر الله ذاته- يتضمن احتمال إحالة هذا الآخر إلى مجرد كائن"مصلحة" يسعى الإنسان إلى استغلاله. بكلمة واحدة إلى جعله مجرد صنم.

تَمثُلُ هذه العقد أمامنا كلما هَمَمْنا بتجديد موقع المسيح جوهريا حيال هذه التساؤلات البشرية.

١. يسوع طريق الله إلى البشرية

ان طريق الخلاص، بحسب الوحي التوراتي-المسيحي، لا ينطلق من الإنسان، بل ينحدر من الله نفسه. انه من الأهمية بمكان أن نشير إلى ذلك تجاه من يزعمون أن فكرة الخلاص ما هي إلا انعكاس لأحلام الإنسان. فالله، عندما خلق

الإنسان، أقام لنفسه بكامل حريته وحبه مُحاوِراً، بشخص هذا الإنسان ذاته، يدخل معه في عهدٍ كان هو المُبادِر فيه. ومن هذا المنطلق يصبح توق الإنسان الشديد إلى تجاوز ذاته للوصول إلى الإكتمال، بالفعل الإلهي الخلاق، مؤشراً إلى "دعوته" في الشركة مع هذا الذي طُبِعَتْ صورته في قلب الكائن البشري (تكوين ١: ٢٧-٢٨).

وفي سبيل اللحاق بهذه الإنسانية المدعوة إلى المشاركة في حياة الله، خطّ الله له طريقاً إليه. وينقل كتاب العهد القديم إلينا قصة هذه المسيرة. فلقد اختار الله له شعباً، وأعطاه أرضاً وملكاً، وتوجهت سلالته باختيار حر من قبل الله نحو مجيء المسيح؛ وأعطاه مؤسسات وهيكلاً وشريعة كتب فيها عهده بشكل محسوس. ولقد أراد الله أن يلحق بجميع البشر، مهما كان عرقهم أو أمتهم، من خلال هذا الشعب المختار. في هذا الشعب الخاص، فتح الله له طريقاً إلى جميع الشعوب.

أخيراً "تجسدت" هبة الله للبشرية في الإنسان يسوع الناصري الذي يعني اسمه "الله يخلص". فبه تتحقق وتتلاشى كافة الوساطات، لأنه هبة الله ذاتها، وهو صلة الوصل المفتوحة مع البشر، مع كلمته، ومع ابنه الذي يتلقى ذاته بأكملها من الآب، وعليه ان يعرّف العالم بأبيه ويهبه إياه. فيسوع هو في آن واحد "الله المأخوذ" و "الله المعطى"، عمانوئيل (الله معنا). وعندما حدد آباء الكنيسة أصالة لاهوته وناسوته، إنما أقروا بالخلاص الذي نلناه بمثابة لقاء مع الله ذاته في هذا الكائن اللحمي، في هذا الإنسان المنتمي إلى جنسنا البشري، يسوع الناصري.

ولكن اللقاء بين الله والبشر ليس أمراً تلقائياً. فلكي يتم ينبغي رفع الحواجز التي يقيمها رفض البشرية، أي الخطيئة. فالبشرية قد ترفض اختيار الله، وتختار لها أنواعاً أخرى من الخلاص خارج ما يعرضه الله لها. من أجل ذلك نقول بأن هبة الخلاص هي تحرير أيضاً من العبوديات، ومن السلاسل التي وضعتها البشرية في

معصميها. ولقد صار خروج الشعب اليهودي الذي انتشله الله من عبودية مصر، نموذجا أولياً لكل الانعتاقات التي حققها الله لصالح الإنسان، وبهدف إشراكه إشراكاً كاملاً معه. أما في حياة يسوع، فلقد اتخذت هبة الخلاص أيضاً صيغة صراع مع الاستلابات المختلفة، ومنها صراع أوصله حتى الصليب.

وهكذا تظهر المعالم الأولى الأساسية للخلاص الذي أتى به المسيح للبشرية، فإذا هي درب "نازلة"، وطريق انخفاض عبّر عنها النشيد إلى الفيليبيين (٢: ٥-١١) بأبلغ العبارات. يقول النشيد بأن الله في تنازله "أفرغ ذاته"، فتناول اللاهوت الفكرة وعبّر عنها بكلمة (كينوس Kenose) اليونانية، أي الانحدار. ويتوسع التقليد الكنسي في إثراء هذا الوجه من الخلاص بمفاهيم عديدة مثل: التحرير، الغفران، التبرير، الاستنارة، التأله. ولقيت هذه العبارة الأخيرة حظوة خاصة في التقليد الشرقي.

٢. يسوع، طريق البشرية إلى الله

إن اللقاء بين الله والبشرية مشروع يجد قمته في وجود يسوع الناصري. وعندما تتجسد كلمة الله، تصبح هذه الكلمة تاريخاً وزمناً فاصلاً في تاريخنا البشري، وتُحقّق الخلاص على قدر ما تحقق دعوة آدم، أي تحقّق إنسانية تتجسد فيها البنوة الإلهية كاملة. فيسوع هو حقاً الإنسان بحسب قلب الله. من أجل ذلك بوسع الله أن يضع فيه كل رضاه (متى ٣: ٧١). لقد صب يسوع حياته كلها في قالب علاقته بالآب، هذا الآب الذي فيه وجد الجواب المنتظر من البشرية: جواب إنسان حر لا يحتفظ لذاته بأي شيء.

ولكن جواب يسوع لم يأت من دون نضال، لأنه عاش طاعته في عالم رافض لله. وتشكل نصوص التجارب[١٦] شهادات بليغة عن هذا النضال الذي التزم

به يسوع وقاده إلى الجلجلة. إن جواب "نعم" الذي أعطاه يسوع لله يصطدم بـ "لا" البشر الذين من أجلهم جاء، ومن أجلهم قدّم حياته، واقفاً باسمهم أمام الله، ومبيّناً بالغفران الذي منحه أنه متمسك بالتضامن معهم. فلقد حرص على تضامنه هذا مع البشر حتى في النكران والعزلة التامة، كما ينبغي أن يفعل "البكر بين إخوة كثيرين" (روما ٨: ٢٩).

وهنا يظهر الوجه الجوهري الآخر للخلاص، كخط صاعد من الإنسان نحو الله، خط يمثل الدرب ذاته الذي سلكه الله نفسه، في الواقع. وهذا الطريق "الصاعد" من الإنسان نحو الله على خطى المسيح "الذي مات من أجلنا" وباسمنا، يعبّر عنه التقليد بمفاهيم مختلفة مثل: الضحية، الثواب، الرضى، التعويض، التمثيل. هذه التعابير تتردد في التقليد الغربي بصورة خاصة، محملة بتأويلات خاطئة كثيرة أحياناً، مما يستوجب توضيحها[١٧].

٣. هذا الذي يصالحنا

إن هذين الطريقين "النازل" و "الصاعد" هما أسلوب تعبيري لسر المسيح، الإله الحقيقي والإنسان الحقيقي، الذي في شخصه تختم المصالحة بين الله والبشرية (٢ قورنثية ٥: ١٩). فالله أتاح للإنسان أن يقبل إليه بحرية متجددة بغفرانه، حرية عادت حرية الأبناء من جديد لأن روح الابن ينعشها؛ وبغفرانه خطايا البشر يعتقهم من أشكال العبوديات، ويدفعهم إلى إعادة بنيان المصالحة في ما بينهم. إنه يعيدهم إخوة في ما بينهم، وسط خليقة أعيد تحريرها. أجل، إن الفداء يخص الخليقة أيضاً كما يخص البشر الذين، في عطشهم إلى السلطة، لا ينون يستلبون هذه الخليقة ويذلونها. لنفكر بالأسلحة النووية. إن الخليقة تعود فتجد ما هي غايتها الأولى بشخص المسيح (روما ٨: ١٨-٥٢).

ثانياً: الفداء

"الفداء" كلمة صيغت في القرون الوسطى توازي كلمة الخلاص والتحرير في اللغة البيبلية. فلقد أثرت هذه العبارة السائدة في التقليد اللاتيني على ثقافتنا الدينية بعمق. ولكي يتوضح معناها الدقيق، يجب التذكير، بدءاً، بمفهوم الجماعات المسيحية الأولى عن موت المسيح.

١. مات من أجل خطايانا

اهتمت الجماعات الأولى في بادئ الأمر بقيامة المسيح، ولكن سرعان ما تساءلت عن معنى موته على الصليب. ترى كيف تجاوز التلاميذ شك الصليب وتوصلوا إلى أنه فعل خلاص؟ للإجابة على هذا السؤال يمكننا تمييز ثلاث مراحل مع ج. ن. بزانسون[١٨]

• في خطوة أولى رأى التلاميذ أنفسهم إزاء "الشرخ" الفاصل بين حدث الموت وحدث القيامة. الصليب شك، لأنه يعني موت البريء، ولقد أخذ على انه إخفاق لمخطط الله (لوقا ٢٤: ١٩-٢١). لم يفهم التلاميذ معنى هذه الميتة، فبانت لهم القيامة كاحتجاج الله على الظلم. "هذا الرجل الذي أسلمتموه وقضيتم عليه، **لكن** الله أقامه" (أعمال ٢: ٢٤؛ ٢: ٣٦؛ ١٣: ٣٠).

• في خطوة ثانية **يدخل** الموت في مخطط الله. فلقد فهم التلاميذ تدريجياً ان الله إذا برر يسوع هكذا، فلأنه يؤيد رسالته وأعماله. فيسوع، إذن، هو هذا الذي يأتي ملكوت الله على يده، لذا لا يمكن أن يُنظَر إلى موته كحدث طارئ باغت الله؛ بل ينبغي أن يدخل كحلقة في مخطط الله. وهذا ما فعله يسوع على طريق عماوس (لوقا ٢٤: ٢٧ و٤٤)، عندما كان يستعرض لهم وجوه التوراة الكبرى

والأنبياء (العبد المتألم)، أو المزامير (البار المضطهد مزمور ٢٢)، مبيناً لهم أن هؤلاء هم صور سابقة وإعلانات تنبئ بالمصلوب. "أما كان ينبغي أن يحتمل المسيح هذه الآلام ويدخل مجده؟". وهكذا لم تعد القيامة في مواجهة مع الموت (ولكن)، بل في شركة مع الموت.

• وتأتي الخطوة المتقدمة الثالثة عندما يفهم التلاميذ ان هذا الموت هو في **سياق ومنطق وجود** يسوع، فليس هو قدراً محتوماً، بل نتيجة اختيارات يسوع الذي أحب "حتى النهاية" (يوحنا ١٣: ١)، ودخل "في آلامه طوعاً". وهكذا ارتبط الموت بالقيامة ارتباط السبب بالمسبب، شيئاً فشيئاً. "لقد وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب، **لذلك** رفعه الله رفعة" (فيلبي ٢: ٨-٩). ان عبارة "لذلك" ربطت مع بعضهما طرفي العبارة السابقة التي اكتفى حرف العطف (و) بموازاتهما.

وبعد ان كان الموت والقيامة شريكين، ها هما كنبع واحد أوحد للخلاص. من هنا نفهم لماذا يرى العهد الجديد في الصليب أسمى تعبير للخلاص. فبالنسبة إلى يوحنا يصبح الصليب شجرة الحياة التي منها يجري الروح (١٩: ٣٤-٣٧). أما بولس والإنجيليون فيجعلون منه بديلاً للهيكل والموضع الذي فيه يؤمّن لنا الله حضوره. وهكذا نتجاوز شك الصليب عندما ننظر إلى موت يسوع كعنصر مكوِّن ضمن نظام شامل للمعنى، ولكن شرط ان تبقى أعيننا شاخصة إلى حياة يسوع وموته كما جاءت ضمن التاريخ.

٢. مرة واحدة

يحاول البحث اللاهوتي في موضوع الفداء أن يعبر عن الطابع الفدائي لموت يسوع، كما جاء في نص قانون الإيمان: "وصلب عوضنا في عهد بيلاطس البنطي".

فعبارة "عوضنا" يجب فهمها في إطار بعدها الشمولي، بينما تسترعي انتباهنا عبارة "في عهد بيلاطس البنطي" إلى خصوصية هذه الميتة كحدث مؤرخ وواقع ضمن التاريخ. أما من زاوية كون هذا الحدث خاصاً وشخصياً، فلا يمكن لهذا الموت ان يعاد: "فيسوع، بموته، إنما مات مرة واحدة" (روما ٦: ١٠؛ عبرانيين ٧: ٢٧؛ ٩: ١٢؛ ١٠: ١٠)، أما من حيث مفاعيله، فهي تمتد إلى كل الأزمان وإلى جميع الناس. ويأتي السؤال: كيف يسع لمصير خاص ان يهّم البشرية كلها؟

هنا نطرق باباً مزدوجاً يرتسم في دفتيه مجمل معطيات اللاهوت المسيحي في الخلاص. فمن جهة يتم تركيز آحادي الجانب على تاريخ يسوع، يقود إلى اعتبار موته مجرد موت بطل، أي موتاً إلى جانب ميتات أخرى، أو بتعبير بولتمان "نهاية قلب نبيل". من جهة أخرى يتم تشديد آحادي الجانب أيضاً إلى حد كبير على البعد الشمولي المثالي لموت المسيح، من دون الأخذ كفاية بعين الاعتبار الظروف التاريخية التي وقع فيها. فنقع، إذ ذاك، في خطر تقديم نضال المسيح كمأساة هائلة بين الله والخطيئة، دون ذكرها؛ ويصبح دخول الله واقعياً في التاريخ أمراً غير ذي بال.

فلكي نتحاشى هذين التطرفين، لابد من الكشف عن الفكر اللاهوتي في المعنى الشمولي لموت المسيح، دون الابتعاد عن الدوافع التي أدّت إلى إدانته، أعني الأخذ بعين الاعتبار مقومات حياته، ولقد نجح المسيحيون الأولون في الحفاظ على هذا التوازن. أما في عهد آباء الكنيسة، فلقد حاولوا تحديد الخلاص الذي ناله المسيح في طروحات لاهوتية مختلفة، يمكننا تلخيصها بأربعة، مع اللاهوتي هـ. تورنر[١٩].

• الطرح الأول عنوانه **المسيح النور**: لقد خلصنا المسيح، وهو معلم الحكمة، بفتحه الطريق أمامنا وإدخالنا في معرفة الآب. إن هذا المنظور يضع في

المقدمة دور الله في عملية الخلاص، ودور الإنسان الذي يستقبل هذا الخلاص. أما موت الصليب فيبدو في هذا الطرح فعل حب أعظم يهدف إلى استمالة قلب الإنسان المتصلب: في هذه الطروحات تنعكس ملامح اللاهوت اليوحناني.

• وهناك وجه آخر للخلاص، وهو وجه **المسيح الضحية**. في هذا الطرح يُنظَر إلى المسيح الحمل الحامل خطايا العالم، ولقد أبرز اللاهوت اللاتيني هذا الجانب مركزاً، بصورة أساسية، على فعل المسيح، وليس على فعل البشر. وتستوحي هذه الصورة مفاهيم مأخوذة عن الوسط الطقسي (الذبيحة) والشرع (التعويض).

• وجه ثالث للخلاص: هو وجه **المسيح المنتصر** على قوى الشر. يأخذ هذا التشبيه منحى اسطورياً حيث يركز، مثلاً، على النصر الذي أحرزه المسيح على الشياطين. ولكن إيجابية هذا التشبيه هي في تأكيده على بلوغ الخلاص عن طريق الجهاد، جهاد يعانق كل تاريخ البشرية "مستعيداً تكويناتها" لكي يخلصها (القديس ايريناوس). لقد تناول لاهوت القرون الوسطى هذا الجانب مركزاً على استحقاقات المسيح، كما تناوله اللاهوت المعاصر اليوم أيضاً وتأثر به.

• طرح أخير للتعبير عن الخلاص: هو **التأله**. ويمتاز هذا الطرح، مقارنة بما سبق، بوضعنا في خط الخلاص مباشرة، أي في خط التحرير من العبودية، كي نصير أولاداً. وحياة البنوّة هذه هي حياة جديدة مع الله، حياة يتغير فيها الإنسان الخاطئ بفعل نفحة الروح الذي خلقه.

٣. باسمنا

لقد تبنى التقليد اللاتيني المنظور الثاني أكثر من غيره، وذلك بتأثير من القديس أنسلمس (١٠٣٣-١١٠٩)، هذا المنظور الذي يرى الخلاص بمثابة فداء.

فلقد وضع القديس أنسلمس رابطاً قوياً بين التجسد والفداء، إذ قال: إذا جاء الابن بين البشر، فلكي يدفع باسمهم الدَين الذي عليهم من جراء الخطيئة. ذلك ان الابن حلّ محلهم في الفدية، لعجزهم عن أدائها بأنفسهم. إن إشاعة هذه النظرية التي وسمت الثقافة الغربية بعمق، وبصورة مبالغ فيها، أدت إلى بناء صورة ممسوخة لله، حيث بدا الله كملك غيور ومهتم بحقوقه ليس إلا، مطالب بإنزال العدل بثمن يفوق التصور. وهكذا انحرفت المفاهيم التقليدية في لاهوت الفداء: فأصبحت تضحية المسيح تضحية تكفيرية ملزمة من قبل إله غاضب؛ وبدا الثواب بمثابة حق مكتسب بجهود الإنسان؛ والرضى الإلهي كتهدئة يطالب بها إله منتقم.

• **الذبيحة**: إن الذبيحة التي تفترض هبة مطلقة للذات هي موجهة نحو الآخر، كما لاحظ ذلك بصورة واضحة كل من القديس أوغسطينوس والقديس توما الاكويني، ولكنها لا تمنح من ذاتها هذه الشركة التي لا يمكن أن تأتي من الآخر، أي من الذي إليه تتوجه الذبيحة. إن حياة يسوع برمتها كانت هبة مطلقة للذات إلى الآب، مما جعل منها تضحية حقيقية. فيسوع "أفرغ" ذاته وصار خادماً، و لم يطالب بمساواته مع الله. وعندما مات المسيح وهو يلفظ الـ "نعم" الأخيرة لأبيه، انشق حجاب الهيكل، لأن موضع الالتقاء بين السماء والأرض صار من الآن فصاعداً يمر بشخصه، هو الذي اقترب من الإنسان تماماً. وهنا يجدر بنا أن نقرأ مثل السامري الصالح حيث تتواجه خدمة الهيكل مع خدمة المحبة (لوقا ١٠ وكذلك روما ١٢).

إن ذبيحة المسيح تخلصنا لأن حياته فتحت مجالاً في تاريخ البشر أتاح للإنسان أن يعترف بالله إلهاً مطلقاً من دون منازع، ومن دون أية خطيئة. "وهكذا ترتبط الذبيحة بالذات الإلهية، وبالعزم الذي يأخذه المؤمن للمضي بكامل ذاته نحو إلهه، مع ان كل شيء يستند إلى مجانية الله الكاملة"[٢٠]. أما من ناحية التلميذ،

فالتضحية يقدمها عن الهبة التي منحه إياها الله بابنه، كما منحها تعالى لكل إنسان. هذه هي السلوكية التي ينتهجها كل التلاميذ: فكما أعطى الإنسان حيزاً للآخر، كذلك فتح حيزاً لدخول هذا الآخر في عالم ذاته، والآخر هنا هو الله ذاته (متى ٢٥: ٣١-٤٦).

• **الثواب**: ما هي نظرتنا إلى مفهوم الثواب الذي هو جزء أيضاً من مفردات لاهوت الفداء، من دون أن نسقط في الانتفاعية المصلحية؟ قد يعرضنا هذا التوجه إلى تشجيع قيام مسيحية ذات وجه استغلالي، سبق لوثر ان شجبه. هذا الوجه يدفع المؤمنين إلى تكديس الاستحقاقات، أو إلى الغرف من رصيد القديسين. إن فكرة الثواب خطرة الاستعمال في البحث اللاهوتي، لأنها تعرض مجانية الله للانتقاص. فلنحاول إذن فهمها فهماً صحيحاً.

ان الحديث عن الثواب أو الاستحقاق يقيم صلة قانونية في محتوى العقد بين الفعل والغاية: العامل يستحق أجرته بقوة العقد المبرم بينه وبين رب العمل الذي ربط بين قيمة العمل المنجز والأجرة المستحقة. فعندما يلجأ لاهوت الفداء إلى مفهوم الاستحقاق في سياق حديثه عن الخلاص، فإنما يريد التأكيد على ان الخلاص هو ثمرة نشاط مبذول وجهاد إنساني بذله يسوع. بهذا المعنى قرأنا عبارة "من أجل ذلك" في (فيلبي ٢: ٩) التي تشير إلى الرابط القائم بين نصر القيامة والثمن المبذول للحصول على هذا النصر.

إن مفهوم الثواب أو الاستحقاق في المسيحية ليس مفهوماً مُداناً بحد ذاته. لاشك أن لا حق لأحد في الخلاص، ولكن العقيدة الكاثوليكية تأخذ بأن الله يهب للبشر أن يشاركوا في عملية خلاصهم. وإذا كان ثمة علاقة بين الأعمال البشرية والثواب، فهذه العلاقة جاءت بالنعمة، وهي جزء من العهد الذي أقامه الله في مجانية عطائه. لذا لا مساس البتة بمجانية الخلاص، ويشهد على ذلك مثل الدينونة

الأخيرة (متى ٢٥). فالمصير الأبدي لكل إنسان مرتبط بأسلوبه في الحياة وفي عطاء ذاته لغيره. مع إن عطاء الذات في خدمة الآخرين لا يمنح حقاً مكتسباً في حد ذاته لصاحبه. إنما الله هو الذي يقيم العلاقة من أجل اسم المسيح، بين طريقتنا في الحياة اليوم والحياة التي يمنحنا إياها في المسيح إلى الأبد. إننا نؤمن أن بوسع حريتنا، وهي ذاتها هبة من الله، أن تشترك في بنيان كياننا كأبناء الله، وذلك انطلاقاً من قاعدة تضامن المسيح معنا.

• **التعويض**: غالباً ما نفهم هذه الفقرة الثالثة وكأنها تعويض يطالب به الله لقاء الخلاص الذي يمنحه، وإن الابن إذ "يضحي بنفسه فداء عن الكثيرين" (مرقس ١٠: ٤٥)، إنما يفعل ذلك عوضاً عنا. إن مثل هذا التأويل ينبغي أن يعدَّل. ففي العهد القديم لا تشير "الفدية" إلى الثمن المطلوب دفعه لمغفرة الخطايا. الفدية ليست شراء ولا هي استعادة بثمن، وإنما تشير إلى مبلغ كبير من المال يدفع لإسقاط حكم الإعدام عمن حكم به. وهذه الفدية ليست مطلباً من القاضي، بل هي هبة يقبلها طرف ما بحريته في سبيل ان يحيا الآخر. فإذا قلنا أن المسيح أعطى حياته "فدية" يعني ذلك انه أعطى حياته بحريته كي يخلصنا حباً بنا، وليس لكي يهدئ عدالة ناقمة[٢١].

عندما نقول بأن على المسيحيين أن يقدموا "التعويض" عن خلاصهم، لا نعني بذلك مطلقاً ان الله شخص يطالب بدفع الديون المستحقة له. ان التعويض هنا يشير فقط إلى أن الخلاص شيء غالٍ، وعليك أن "تدفع الثمن"، أي أن تأخذ الأمر بجدية بالغة. لماذا؟ لأن الله يحترم جهد الإنسان. لا يطالب الله الخاطئ أن يحصل على خلاصه بجهد يفوق طاقة البشر، ولكنه يعطيه القدرة على إعادة بناء ما هدمه، وهو يحترم الإنسان ويعامله ككائن مسؤول. فالتعويض إذن أو التكفير هو عمل خلاصي، لذا فهو ثمرة من ثمار النعمة وتعبير عن حب الله أيضاً. وبالتعويض يمنح

الله الإنسان قدرة على "قلب نظام التاريخ الذي أنتجه هذا الإنسان" (ش. ديكوك)، وذلك بمساهمته في عملية التحرير التي نالها المسيح على الصليب.

•

• •

الفداء والتحرير

بدءاً، لا معنى لوضع مفهومي الفداء والتحرير في تناقض مع بعضهما. فالفداء تعبير من القرون الوسطى يعني الافتداء من إدانة. أما عبارة التحرير قد تبدو مشبوهة لأنها تحمل نكهة سياسية. غير أن هذه النكهة قائمة أيضاً في عبارة "الفداء" وفي استعمالاتها السابقة في الأدب العبري، بالرغم من إهمالنا هذا الجانب!

أما أن يحمل مفهوم الخلاص نكهة سياسية، فنرى في ذلك علامة ايجابية صحية في المسيحية، لأنه يعني بكل بساطة أن للخلاص بعداً جماعياً: بدءاً من الشعب المختار الذي ينال الخلاص من أجله، ومن خلاله للبشرية وللخليقة أجمع. فلماذا نستغرب أن تؤخذ المفردات التي تعبر عن الخلاص من القاموس الاجتماعي والسياسي؟

لاشك أن الخلاص المسيحي أوسع من التحريرات البشرية وإنه من مستوى آخر. ولكننا لا نستطيع أن نتنكر للمفردات الاجتماعية والسياسية. وحين نفضل كلمات أكثر "حيادية"، "فالخطر" ليس أقل، حيث يبرز الجانب الشخصي للخلاص، من دون الإفصاح عنه، ويتقلص عمل الله إلى عملية إنقاذ فردي. لنتذكر الترتيلة القديمة القائلة: "ليس لي سوى نفس، خلّصها يا رب...".

لقد اقترح الأساقفة الفرنسيون في ١٩٧٤ الموضوع التالي لتفكير المسيحيين: أوجه التحرير البشرية والخلاص بيسوع المسيح. (أضف إلى ذلك الدراسات البيبلية الصادرة في ملفات "Evangiles" رقم ٧ و٨). و يقوم اليوم مسيحيون آخرون من قارات أخرى ليقصّوا على مسيحيي البلدان الغنية ما هي اكتشافاتهم حول الإله المخلص من خلال نضالاتهم ضد الظلم.

الذبيحة، الثواب، التعويض: هذه المفاهيم الثلاثة مرتبطة مع بعضها في سياقات الفداء الذي استحقه المسيح. فإله العهد يشير إلى أن على الإنسان أن يستسلم إليه كلياً (= التضحية)؛ ويتيح له أن يساهم في بناء مصيره الأبدي منذ هذه الحياة (= الثواب)؛ **ويمكّنه** أن يعدّل مجرى التاريخ الناجم عن خطيئته (= التكفير أو التعويض). إن يسوع يفتح لله مجالاً في تاريخنا الذي، لو ترك لذاته، لقام من دون الله، بل ضد الله. فهبة الله للإنسان في يسوع المسيح ابنه هي التي تجعل هبة الإنسان ذاته لله ممكنة في إتباع خطى يسوع.

ثالثا: الوحي

يشكل الصليب بداية الطريق انطلاقاً من الله باتجاه الإنسان، ومن الإنسان باتجاه الله. إنه المحور الذي منه يتسنى لتاريخ البشرية أن يعود نحو خالقه. غير أن الصليب، لكونه وجهاً من أوجه عطاء الله للبشر، وبمثابة نقطة الوصول للتجسد، ليس مجرد "لغة تعبيرية لخلاص البشر": بل انه كشف عن الله، إله يسوع المسيح. كما أن رسالة الصليب ليست مجرد كلمة عن خلاص الإنسان، بل ينبغي اعتبارها كلمة عن الله، كلمة تعدّل مسار كل الكلمات التي بوسع الناس الدّينيين أن ينطقوها عن الله. بكلمة واحدة، الصليب هو محك للإيمان بالله (١قورنثية ١: ١٨-٢٥).

فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل ثمة مصداقية للإله الذي يكشف عن ذاته فوق الصليب؟ مهما يكن الجواب، يبقى هذا الإله محيّراً! لنلق الضوء على هذا الموضوع من خلال ثلاثة أسئلة: كيف يمكن لله أن يترك ابنه يموت؟ لماذا لزم الصمت في الجلجلة؟ وهل يعطي الصليب معنى للتضحية؟ لا مناص من هذه

الأسئلة، وهي أسئلة طرحت في كل الأجيال. فلقد أسمعنا إياها في كامل حدتها أيوب الذي حطمّه الشر من دون سبب، واليهود الذين ابتلعتهم المعسكرات النازية في العصر الحديث. أمام كل هذه الآلام، وحيال هذا الشر الأعمى أو المجرم الذي يضرب الإنسان، أفلا يكون لله من جواب سوى الصمت؟ إن سر الألم ينتصب بصورة جذرية أمام سر الله!

١. الابن المتروك

لقد سجل كل من متى ومرقس صرخة الاستسلام التي أطلقها يسوع على الصليب عندما تبنى كلمات المزمور ٢٢ في شكوى البار المضطهد. ولقد اصطف كثير من اللاهوتيين المعاصرين إلى جانب لوثر في تفسير هذه الصرخة تفسيراً حرفياً: يسوع يتحمل مصير الخطأة، وبذلك يأخذ على عاتقه العقاب الذي أعده الله لهم، ويتقبله بصمت. وهنا نصل إلى دركات غيابه، إلى دركات الجحيم الذي يقطنه الخطأة والقانطون.

إن إضفاء الطابع المأساوي على صمت الله بهذا الشكل يبدو غير مقبول، لأنه يعطي، بدءاً، أهمية خاصة جداً لتلاوة نص مزمور معين ويهمل ذكر سائر أقوال المصلوب، مثل صلاته الواثقة (لوقا ٢٣: ٤٦). وكذلك لأن المزمور المذكور نفسه لم يُكتب أساساً بهذا الاتجاه: فيسوع يتبنى صلاة بار مضطهد، ولم يرد قط انه والخاطئ سيان، بل انه البار المعذّب والمتروك من الجميع. وهناك أسباب لاهوتية إضافية لا تتيح لنا الاستنتاج بأن الله قد ترك يسوع. فإذا كان الله قد ترك يسوع لأنه حمل خطايا العالم على أكتافه، فمعنى ذلك ان الله يبقى إله العقاب. أفترى هذا هو الإله الذي بشر به يسوع؟

لقد كشفت لنا حياة يسوع وجهاً آخر لله، ومن خلال رحمته وغفرانه كشف لنا يسوع إلهاً يذهب إلى آخر حدود الحنان: "من رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩). كما تشعرنا مبادرات يسوع وحياته اننا أمام إله يختلف تماماً عن هذا الإله الذي يفترضونه تاركاً ابنه في أحرج أوقات محنته. إن إله يسوع الذي يبحث عما هو مفقود، أتراه يتنكر لابنه حين لم يعد سوى مدنف تكتنفه الظلمات؟ تلك رؤية مرفوضة حقاً!

٢. صمت الله

ولكن إذا كان الأمر كذلك، إذا كان الله حباً، إذا لم يكن قد ترك ابنه، إذن لماذا يتخندق وراء الصمت؟ اننا حقاً على حافات السر. فإله يسوع المسيح يبدو إلهاً صامتاً أكثر من أي وقت مضى عندما ينظر إليه الذين مروا بتجربة معسكرات الموت. ولكننا سنكتفي هنا بالحديث عن صمت الله في الجلجلة. هل كان يا ترى قادراً أن يخرج من صمته ويشهر "ذراعه المخيفة" بوجه الخطأة الذين أدانوا ابنه؟ ليس هذا هو أسلوبه! لو خرج الله عن صمته لما كان الإله الذي أظهره ابنه. ان الله يكشف عن ذاته مجاناً دون قيد أو شرط، ولا يطلب شيئاً بالمقابل، لا لإسكات عدله، ولا لحماية كرامته. فها هو يكشف عن ذاته في بيت لحم في شخص طفل فقير مهمّش (لوقا ٢: ١٢). حقاً لا شيء أعزل من الحب، لأن الحب معرَّض أبداً لحرية الآخرين. ولقد اختبر يسوع على الصليب كم تكلف الشهادة لمجانية الله، إذ يبقى الله لا يتدخل. وبعد القيامة نفسها لن يتدخل الابن لتأنيب خصومه، بحيث ذهل التلاميذ من هذه الرقة. فإذا كان الله قد حافظ على الصمت في الجلجلة، فلئلا يتصرف عكس شهادة ابنه الذي تحدث عن إله قد وهب ذاته وأسلمها.

يعيدنا ضعف الله هذا الظاهري إلى حرية الإنسان ومسؤوليته من جديد. فلقد أوضح لنا اللاهوتي البروتستنتي د. بونهوفر الذي أعدمه النازيون عام ١٩٤٥ عن هذا المعنى بقوله: "أمام الله ومع الله نعيش من دون إله. فالله يستسلم لإبعاده عن العالم، فيسمَّر على الصليب. يبدو الله عاجزاً وضعيفاً، وعندما يكون كذلك فقط، يكون معنا ويأتي إلى عوننا... ان المسيح لا يساعدنا بقوة جبروته، بل بضعفه والآمه..". "أما أن نكون أمام الله ومع الله، ونعيش من دون الله، فمعناه أن نقبل بوضعنا البشري، ولا ننتظر من الله أن يحل محلنا". يقول بونهوفر أيضاً: "ان الله الذي معنا هو الله الذي يهملنا. إنه يتركنا نحيا في العالم من دون أفكار نظرية عن عمل الله".

ان بونهوفر بقوله هذا يتواصل مع نظرية لوثر اللاهوتية في ان ضعف المصلوب هو شرط لاعتلانه. فإله الضعف لا يتعرض لخطر الخلط بينه وبين الإله الذي تصنعه أيدٍ بشرية. ذلك ان البشر عندما يستنبطون لهم آلهة، فإنهم يصوغونهم خارقي القوة وعنيدين. لذا يأتي صليب يسوع ليعبّر عن إخفاق المعتدّين بأنفسهم وبقدرتهم على الوصول إلى الله بنظرياتهم الخاصة. إن الصليب هو الموضع الذي يعلن الله فيه اسمه حقاً، بعيداً تماماً عن خطر الخلط بينه وبين آلهة أخرى: إن اسم إلهنا هو الحب، الحب الذي يقترب منك. إن الله معنا حتى الملاشاة التامة[٢٢].

٣. يسكن الله في الألم

إن الألم عثرة، ولقد حاول المؤمنون في كل الأزمان أن يبددوا ظلماته. لقد صرفوا أطناناً من الحكمة البشرية لكي يقضوا عليه. إننا نعرف خطاب أصدقاء أيوب الذين حاولوا تبرير الألم، ونرى في الإنجيل الجهد ذاته (يوحنا ٩: ١-٤)

حين أرادوا تفسير الألم كعقاب يستحقه صاحبه بسبب خطاياه. وتتكرر التفسيرات ذاتها عبر التاريخ وكأنها اللازمة[٢٣].

لم يبرر يسوع الألم، ولكنه عمل كل ما بوسعه للتخفيف عنه، وكانت مواقفه تمس واقع الناس واجتهد جاداً في تهدئة الألم. فبينما يبحث الآخرون عن المذنب، يبحث يسوع عن الشفاء (يوحنا ٩، لوقا ١٣: ٢-٦). إنه يفكك ويفضح المؤسسة التي تستحوذ على الضمير الإنساني وتدعي ان الألم ثمن يدفع عن خطأ مرتكب، وإن الألم جزاء الذنب. يأتي الصليب ليكسر هذه الحلقة المفرغة. فيسوع المائت على الصليب هو بريء، وهو الإنسان الذي لا خطيئة له. وإذا ما سُحِق، فليس لأنه ارتكب خطيئة: من هنا نرى الأهمية الكبرى في استبعاد فكرة إلقاء وزر غضب الله على أكتاف المصلوب. فمثل هذه الفكرة تعيدنا من جديد إلى التفسيرات القديمة التي ترى في العقاب انتقاماً من الله.

إن المسيح بموته على الصليب لا يتعرض لغضب الله، ولا يتألم لأنه مذنب، لا بسببه هو، ولا بسببنا نحن. إن من يتمسكون بمثل هذه الأفكار، إنما هم أعداء المسيح. وإذا ما تألم المسيح ومات، فلأنه ضحية عنف آت من الناس، لا من الله، وصليب يسوع والغفران الذي يمنحه يفضحان هذا العنف، فليس صمت الله تواطؤاً مع العنف، بل هو تعبير عن رفض الله الدخول في الحلقة الإجرامية المفرغة: عنف المذنب، وقمع القاضي: غفران يسوع وحده ينقض صمت الله. إن موت يسوع في التجرد الكامل لا يفسر الشر ولا الألم، وإنما يظهر لنا إلهاً أخذ الألم على عاتقه. ومن الآن فصاعداً نعرف ان الله لا يستثني أية مأساة بشرية إلا وينضم إليها ويشارك فيها.

من جانب آخر لا تعطي القيامة حلاً لمآسي البشرية، وكأن الله يشترط الألم والموت لكي يفجر ينابيع الحياة. إن القيامة تعلن أن بوسع الله أن يعطي الحياة حيث الألم وبوفرة. هذا ما فعله في الفصح بفضل نعمته.

•

• •

"هكذا أحب الله العالم حتى أرسل إليه ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (يوحنا ٣: ١٦). تلخص هذه الأسطر القليلة كل بلاغات الفصح. لقد تضامن الله مع ما كان ضائعاً، ولا أمل فيه. وهكذا يكون الصليب رسالة حب قبل أن يكون رسالة مأساوية. فإله العهد، عندما خلق البشرية، جازف وقبل على نفسه حرية الإنسان، أي التعرض لأن يُرفَض. وأخذ الابن على عاتقه هذه المجازفة على الصليب، وفي تضامنه مع الجميع لم يرضخ لأنْ يتشوه الإنسان، لأن أباه إله الحياة هو، وهو الخالق.

يبقى المسيح هو "الله معنا" حتى الموت، الإله الذي أسلم لأيدي البشر دون قيد أو شرط أو سبب، لأن اسمه محبة. فعندما صار الله إنساناً، هذا الإله الذي للإنسان عنده قيمة، فتح طريقاً للحياة أمام البشرية، وهذه الطريق هي حياته المقتسمة ذاتها (أنظر الملحق رقم ٤).

الخلاصة

المسيح حي
كيف نلتقي به؟

في ختام هذه الجولة التي نقلتنا إلى أجواء العصور التاريخية كافة، توضح لدينا أن يسوع المسيح قد احتل ولا يزال يحتل موقعاً مركزياً في حياة المسيحيين. وعندما يبحث المسيحيون عن الاستنارة في المسائل الأساسية للحياة البشرية مثل الحياة، والألم، والموت، والخلاص، والحب فعند أقدام المسيح يبحثون عنها ويجدون النور. ولقد تعلمنا من سماعنا التقليد الكنسي ان الإيمان بالمسيح الذي زود حياتهم بالطاقة المتفجرة، ليس إيماناً مبتوراً، بل يمد جذوره في عمق شهادة الرسل، وإن كل جيل يستند إلى ما سبقه. فيأتينا السؤال التالي الذي لامناص منه: نحن الذين لم نر المسيح و لم نسمعه، كيف ترى نلتقي به؟

بينما كانا سائرين في الطريق إلى عماوس يتحادثان عما جرى، "اقترب يسوع نفسه وانضم إليهما، ولكن أعينهما كانت مغمضة عن معرفته" (لوقا ٢٤: ١٥-١٦): هذه هي حالة المؤمن. فليس حضور يسوع المسيح الذي ينقص، وإنما العيون ليست مفتوحة بما يكفي، ولا الإيمان قوياً لمعرفته في الطريق. قد يكون غائباً، ولكنه ليس ببعيد!

يشكل الرقم ٧ في التقليد البيبلي رمزاً للكمال. وسنعمل هنا على استكشاف الطرق السبع التي يثبت فيها الرب يسوع المسيح حضوره في حياة المؤمن، بالرغم من انسحابه عن أبصارنا الجسدية كي يتركنا في تحمل مسؤوليتنا الذاتية. إنها المرحلة الأخيرة التي نطرقها في مسيرتنا، وهي مرحلة جوهرية بالنسبة لنا، إذا ما اعتبرنا أن اسم يسوع لازال هو الذي يحيينا اليوم.

١. الكتاب المقدس: كان زمن لا يقرأ المسيحيون الكتاب المقدس إلا لماماً، مع ان الكتاب المقدس هو كلام الله. في هذا الكتاب نحتفظ بذكرى مرور الله في تاريخ البشر، إذ يحفظ بين طياته آثار أعمال الله ومبادراته تجاه خليقته، وإن لم تكن كلها مذكورة. ولو أردنا ذكرها بالتفصيل "لما خلت العالم يكفي لما يمكن أن يكتب فيها من الكتب" (يوحنا ٢١: ٢٥). ان عمل الله في العالم يتجاوز إمكانيات كتاب ما. ولكن هذا الكتاب الذي بين أيدينا ينقل إلينا ما هو أساسي، أي ان الله هو "مع الإنسان"، لا كمتفرج، بل كفاعل وممتزج في التاريخ ذاته، آخذا أحوال الإنسان نفسه على عاتقه. إننا، بتأملنا في الكتاب المقدس، فردياً وجماعياً، تنفتح أبصارنا رويداً رويداً لنرى وجه الله الحقيقي، "لأن لا أحد رأى الله قط؛ الابن الوحيد الذي في حضن الآب، هو الذي أخبر" (يوحنا ١: ١٨).

٢. الوعظ: لا يكفي امتلاك كتاب توراة لكي نلتقي المسيح، يقول مار بولس: "الإيمان من الوعظ، وهذا الوعظ يتغذى من كلام المسيح" (روما ١٠: ١٧). لقد أخذ الخصي الحبشي معه نسخة من التوراة عندما غادر أورشليم إلى غزة، ولكنه كان يقرأ ولا يفهم. "هل تفهم ما تقرأ؟ -ولكن كيف أفهم إن لم يشرح لي أحد؟" (أعمال ٨: ٣٠-٣١). فانبرى الشماس الإنجيلي فيلبس يشرح له. لذا كان وعظ الكنيسة ضرورياً لفهم الكتاب المقدس فهماً صحيحاً، لأن الكنيسة هي التي تعطي للكلمة أن تحيي بالروح والحق. ان عنصر الوعظ، الذي أعاد إليه البروتستنت مكانته، يتضمن إعلان المسيح (كريكما، أي المبادئ الأساسية)، والوعظ مهمة ملحة: "أجل، الويل لي إن لم أبشر بالإنجيل" (١قورنثية ٩: ١٦). وجوهر هذا التبشير هو نقل الإيمان الذي تسلمناه من الرسل، اليوم.

"لقد سلمتكم ما تسلمته أنا نفسي" (١قورنثية ١٥: ٣). فالوعظ لقاء حقيقي بالمسيح: "من سمع منكم، فقد سمع مني" (لوقا ١٠: ١٦).

٣. الأسرار المقدسة: هناك حقيقة مقدسة ثابتة للمسيحي، كما أشرنا مراراً وتكراراً، وهي جسد المسيح، الهيكل الجديد، ولكن هذه الحقيقة عن جسده الذي خفي عن أبصارنا منذ الصعود، لازالت قائمة في صيغة السر المقدس. ان يسوع المسيح هو السر الأساسي الذي فيه اتخذ الله وجهاً، وبه صار منظوراً، وما الأسرار المقدسة التي نحتفل بها إلا علامات تعيدنا إلى جسده المصلوب / الناهض من بين الأموات. "اصنعوا هذا لذكري" (لوقا ٢٢: ١٩). إن الاوخارستيا، وسائر الأسرار المقدسة، هي أفعال "ذِكر"، ولكن هذه الأفعال لا ينبغي أن تؤخذ كمجرد استعادة لذكريات محفوظة في أرشيف مكتبة، وإنما ينبغي النظر إليها كفعل متجدد لحضور حي.

٤. الكنيسة جسد المسيح: "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟" (أعمال ٩: ٤). لقد فهم بولس على طريق دمشق ان المسيح "التحم جسدياً" مع جماعة المعترفين به. وانطلاقاً من هذه الخبرة بنى فكراً لاهوتياً حول الكنيسة بوصفها "جسد المسيح": فلقد "جعله الله فوق كل شيء رأساً للكنيسة التي هي جسده" (أفسس ١: ٢٢). في هذا الجسد يؤمَّن حضور المسيح: "وأنا معكم إلى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ٢٠). ولقد استنتج القديس اوغسطينوس من هذا الكلام ما يلي: "الرأس والجسد يشكلان مسيحاً واحداً... لأن المسيح أراد أن يكون بكامله معنا"[٢٤]. وفي شرح هذه الوحدة، وهي ليست دمجاً، قال المجمع

الفاتيكاني الثاني: "ان المسيح، بإعطائه روحه القدوس لتلاميذه الذين جمعهم من سائر الأمم، جعل منهم جسداً سرياً"[٢٥].

٥. الخدم الكهنوتية: لا يظهر المسيح من خلال العلامات فقط، بل من خلال أناس مختارين أيضاً ليكونوا خدام حضوره، ويؤمّنوا هذا الحضور. ان الخدمة الكهنوتية الكنسية، وهي خدمة حقاً (يوحنا ١٣: ١-١٧) ليست وظيفة خارجاً عن المسيح. فعندما يعطي الكاهن الغفران، المسيح هو الذي يمنح الغفران، والمسيح "حاضر في شخص خادم السر... بمعنى ان المسيح هو الذي يعمد عندما يعطي أحدهم سر العماد". من هنا نستنتج ان خادم السر لا شيء له يعطيه من عنده، وإنما يعطي ما يعطي "باسم المسيح". فبينما يعطي يسوع باسمه شخصياً: "يا طليثا قومي" (لوقا ٨: ٥٤)، يقول بطرس: "يا حنيا، يسوع المسيح يشفيك" (أعمال ٩: ٣٤). وبالمعنى نفسه لا يستطيع الخادم الكنسي أن يضع نفسه خارجاً أو فوق الجماعة الكنسية، وإن حركته داخل الجماعة تتفاعل كخدمة. يقول القديس أوغسطينوس: "نحن الأساقفة لسنا لأنفسنا، وإنما من أجل الذين نعطيهم كلمة الرب وسره المقدس"[٢٦].

٦. الصلاة: عاش يسوع علاقته بالآب بأعمق أوجهها في الصلاة، وفي أثناء الصلاة تجلى المجد على وجهه. "وتغيرت هيئة وجهه وهو يصلي" (لوقا ٩: ٢٩). ان المسيح القائم "حاضر هنا عندما تصلي الكنيسة وترتل المزامير"، هو الذي وعد وقال: "حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، فأنا أكون في وسطهم" (متى ١٨: ٢٠). وإنه حاضر أيضاً مع هذا الذي يأوي إلى صمت غرفته، ويغلق بابه، ويصلي في الخفية (متى ٥: ٥). "إذا طلبتم شيئاً باسمي افعله" (يوحنا ١٤: ١٣).

ولكن الصلاة لا تكون حقة إذا انفصلت عن الحياة، لذا وضع المسيح شرطاً للصلاة الحقة، ألا وهو الغفران. "اذهب أولاً وصالح أخاك، ثم عد وقدم قربانك" (متى ٥: ٢٤). وهكذا يتقاطع الخط العمودي للصلاة مع الخط الأفقي لإظهار العلاقة الحقة مع الناس. فالمسيح لا تلقاه أبداً على خط واحد منفصل عن هذين القطبين.

٧. كل وجه بشري: لنوسع آفاق تفكيرنا: ان حضور المسيح لا تحده حدود ضيقة، ولا يمكن لأحد أن يحتكره، حتى ولا الكنيسة ذاتها، ولا أن يتقلّص عمله في بقعة جغرافية محسومة سلفاً. ومع ذلك، فلقد وردت تجربة تقليص دائرة حضوره وحلقة عمله بين صفوف التلاميذ: "يا معلم لقد رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك، ومنعناه، لأنه لا يتبعك معنا" (لوقا ٩: ٤٩). لقد جاء المسيح لكل إنسان، ولا يهمل أحداً؛ وهو المبعد، الذي صلب خارج أسوار المدينة، توّحد بنوع خاص مع المبعدين. انه على أهبة الاستعداد للقاء دوماً، ليس على طريق عماوس فقط (من خلال الكتاب المقدس وكسر الخبز)، بل قبل كل شيء على الطريق النازل من أورشليم إلى أريحا، حيث يلتقى جميع مجروحي الحياة (لوقا ١٠: ٢٩-٣٧؛ متى ٢٥: ٣١-٤٦). "إذا رأى أحد... أخاه في عوز وحبس عنه أحشاءه، كيف يقيم فيه حب الله؟" (١يوحنا ٣: ١٧).

تُعيدنا هذه الصورة إلى محور اهتمامنا الدائم طيلة هذه المسيرة الفكرية: الأمانة الكاملة لكلام الله، ولكن الأمانة تستوجب إنصاتاً عميقاً إلى أصوات معاصرينا، لأن يسوع المسيح لازال يشق طريقه بينهم. ان كلامه موجه إلى جميع الأمم، وهو كلام يبحث دوماً عن كل أحد. هذا الكلام يجب أن يُسمع، وهو يُسمع فعلاً في صلب ثقافات أناس اليوم، لكي يجد كل واحد فيه الجواب الأصوب والأمثل لبحثه الشخصي عن المعنى وعن الخلاص. هذه هي مسؤولية الكنيسة

ومسؤولية كل مسيحي معاً. غير ان هذه المسؤولية ينبغي أن يرافقها احترام عميق لحرية كل كائن بشري، لأن الله نفسه يحترم هذه الحرية، حتى لو ضمت في طياتها إمكانية الرفض.

إذا أردنا الإحاطة بكل جوانب الموضوع لاحتجنا إلى صفحات وصفحات. لذا فإن المراجع وهوامش البحث الأخرى تتيح لكل واحد أن يتابع جهوده ويتبحر في فهم إيمانه بيسوع المسيح. لقد كان جل اهتمامنا ان يعود الإيمان المسيحي إلى محوره المركزي، أي يسوع الناصري، ابن الله، الذي مات وقام، وصار خلاصاً ممنوحاً لكل إنسان. هذه هي نقطة الارتكاز التي لا تقبل التجزئة، وهنا يكمن حجر الأساس لكل البناء. لاشك ان ثمة أوجه أخرى في المسيحية تستحق الاهتمام، مثل الأسرار المقدسة، والكنيسة، والتزام المسيحيين في العالم، ولكنها كلها لا تأخذ معناها إلا من هذه النقطة المركزية، أي شخص يسوع المسيح، وإليه يجب أن تعود كلها بشكل أو بآخر. عَلِمَ الإنسان أم لم يَعْلَمْ، "ليس ثمة اسم آخر سواه تحت السماء أعطي للبشر كي يخلصوا به" (أعمال ٤: ١٢).

ملحقات

(١)
بالنسبة لي من هو يسوع المسيح؟

لقد كُتِبتْ أو نُشِرتْ اعترافات إيمانية عديدة جازف فيها مؤمنون وغير مؤمنين ليقولوا من هو، بالنسبة لهم، هذا الرجل الذي يعترف به المسيحيون ابناً لله.

ليس من السهل أن يحكي أحد ما هو إيمانه، والأصعب أن يعبر عنه كتابة. تساعدنا المراحل التالية على طرق هذا الباب:

١. البحث أولاً عن النصوص الإنجيلية التي أعتبرها أنا فلان أبلغَ تعبيراً من سواها عمن يكون يسوع، يسوع الذي ينعش حياتي.

٢. في كل من هذه النصوص أحاول إعطاء صفة ليسوع. مثلاً مع قائد المئة يبدو لي يسوع رجلاً يفرح للإيمان الذي يكتشفه في هذا الحدث، كهبة من الله أبيه.

٣. استذكار الفقرات الكبرى من قانون الإيمان المتعلقة بسر المسيح، والمؤكدة بأنه ابن الله الوحيد... الخ، ومن جهتنا، بأنه "مات من أجل خطايانا"، وبأنه مخلص، وأساس لرجائنا... الخ. وبوسعنا إضافة كلمة هنا، وكلمة هناك...

بعد وضع إضافاتنا الشخصية حول هذه النقاط في الميزان، ومضغها جيداً، لنخاطر ولنلق بأنفسنا في الماء ولنعط جوابنا الشخصي: إذن، بالنسبة لي، يسوع المسيح هو...".

(٢)
إنسانية المسيح والخلاص

لقد عمق اللاهوتيون فهمهم ليسوع المسيح بأنواع شتى عبر التاريخ، كما أوضحنا في القسم الثاني من هذا الكتاب. ولقد أكد هؤلاء اللاهوتيون منذ العصور الأولى، وحتى في عهد الإصلاح البروتستنتي، على الإنسانية الحقيقية للمسيح، فهي الأساس في عملية الخلاص. لتبيان ذلك اخترنا نصّين، الواحد من ايريناوس، والثاني من لاهوتي معاصر، هو مارك لينهارد، الاختصاصي في شرح لوثر، وكلاهما ركّزا على الطبيعة البشرية للمسيح.

• ايريناوس: إنسان لخلاصنا

لقد بنى ايريناوس براهينه عن حقيقة التجسد في سياق بحثه الموسوم "لدحظ الهراطقة" (Ed.Cerf,1984) الذي كتبه ضد الغنوصيين الذين أنكروا التجسد الحقيقي للمسيح، بقوله: لو لم يتجسد المسيح حقاً، لما نال الإنسان الخلاص حقاً. وهذا هو ما يدعى ببرهان الخلاص. وإليك النص الذي يشرح فكرته بوضوح كامل:

"كان ينبغي لذاك الذي سيقتل الخطيئة ويفتدي الإنسان من الموت أن يصير ما كان سيؤول إليه هذا، أي إنساناً ذليلاً في العبودية التي سببتها الخطيئة، وخاضعاً لسلطان الموت؛ كان ينبغي أن تُقتَل الخطيئة على يد إنسان، ويخرج الإنسان من ثم من قبضة الموت. فكما "بعصيان إنسان واحد"، مجبول منذ الأول من أرض عذراء (تكوين ٢: ٥)، "جُعِل كثيرون خطأة" وفاقدي الحياة، هكذا كان ينبغي أن "يتبرر كثيرون" وينالوا الخلاص "بطاعة إنسان واحد" هو الأول، وهو المولود من عذراء. على هذا النحو، إذن، صارت كلمة الله إنساناً، كما قال موسى أيضاً: "إن أعمال الله صادقة" (تثنية ٣٢: ٤). فلو لم يتجسد، ولو لم يأخذ سوى مظهر الجسد، لما حسب العمل عمله حقاً. ان ما ظهر من كيانه، كان كيانه حقاً، أي الله الذي أعاد في ذاته صياغة النموذج القديم، أي الإنسان، وذلك لكي يقتل الموت ويحطمه، فيحيي الإنسان: من أجل ذلك كانت كل أعماله صادقة" (الجزء ٣: ١٨، ٧).

"ان الإنسان الحي هو مجد الله، وحياة الإنسان هي رؤية الله: فإذا كان كشف الله من خلال الخليقة يمنح الحياة لجميع الكائنات التي تعيش على الأرض، فكم بالأحرى يمنح الكشف عن الآب بالابن الحياة لجميع الذين يرون الله" (الجزء ٤: ٢٠، ٧).

• لوثر: التضامن مع البشر لإظهار حب الآب ومصالحة الإنسان معه.

الله حر تماماً بالنسبة إلى لوثر، وكان بوسعه تحقيق خلاص البشر بطريقة أخرى غير التجسد. ولكنه أراد بالتجسد أن يشارك مشاركة كاملة في تاريخ البشر، وبذلك يتيح لهم أن يكتشفوا وجه الله الحقيقي من خلال قصة يسوع؛ لا وجه أي إله، بل وجه إله يكشف عن ذاته الأزلية، الثالوثية التي هي حب. فلقد كتب مارك لينهارد، شارحاً فكر لوثر، في كتابه "لوثر شاهد ليسوع المسيح" (Cert 1973. p387-388):

"لقد تجسد الابن ليكشف عن حب الآب للبشر الذين كانوا قد استعبدوا لغضب الله: هذه هي نظرة لوثر الأولى التي بوسعنا أن نصفها باليوحنانية، أخذاً بقول يوحنا: "من رآني، فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩). فالإنسان يسوع، الذي هو الابن الأزلي المتجسد أيضاً، يكشف الحب الأزلي للآب، بلغة بشرية، وبحركات بشرية، وأعمال بشرية، هذا الحب الذي يثبت راسخاً حتى لو غمر غضب الله الابن. فالبشرية هي أداة تنفيذية للآلوهة، كي تكشف عن كيان الله العميق عبر الظروف التاريخية التي أشرنا إليها أعلاه.

"ولكن لوثر يتصور مأساة تنفيذ الخلاص في رؤيا أخرى إذ يصف المسيح في مجابهة مع غضب الآب، فيتحمل العقاب الذي استحقته الإنسانية الخاطئة، وبذلك يصالح الله مع البشر. ويتكلم لوثر أيضاً، من زاوية أخرى، عن المعركة الظافرة التي قادها المسيح ضد الشريعة، والخطيئة، والشيطان، والموت: هذه القوى التي تستعبد البشر بسبب غضب الله. فكيف ترى يسع الابن أن يبتلع خطيئة البشر ويتحمل غضب الله، وينتصر على الشريعة والموت، إذا لم يكن قد صار إنساناً؟ لاشك ان الله كان بإمكانه أن يخلص البشر كما خلقهم، أي من دون مقاسمتهم وضعهم البشري. ولكن ليس ذلك هو الأسلوب الذي يتبعه الله، لأن الله يريد استخدام طريق الإيمان".

(٣)
التحدث عن الخلاص بكلماتنا

يمكن القيام بالتمرين التالي في نطاق جماعي. والطريقة التي نقترحها تستهدف التوصل إلى اكتشاف النصوص. وهذه المرحلة من العمل على الكلمات هي مرحلة إلزامية حقاً:

١. قم بجرد كافة الكلمات التي تشير إلى الإيمان وتعبر، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن موضوع الخلاص. أي من العبارات:

- ترفض؟ وما هي أسباب الرفض؟.
- لا تبالي بها؟ ولماذا؟
- تناديك، أو ترى فيها صدى لخبرتك؟ وبماذا؟

٢. الخبرات الإنسانية الأساسية التي وسمت حياتك، هل بوسعك أن تقول:

- بماذا أضاءت لك موضوع الخلاص؟
- بماذا أضاء موضوع الخلاص هذه الخبرات؟

٣. أخيراً، كيف تشعر أنك نلت الخلاص أو على يد من؟ بأية وسيلة؟ لأي سبب؟

وهنا عليك أن تجازف بإدراج نص ما، مهما كان ناقصاً، أو غير كامل، أو مفككاً. بالتأكيد، إن مثل هذا النص الذي اخترته سيعكس انحيازك الشخصي في مشروع مشترك.

أ) ليسجل كل واحد ما يراه أساسياً في خبرته الشخصية، وما يريد قوله عن الخلاص.

ب) قارن هذه النصوص الشخصية مع بعضها، وحاول أن تكتشف العناصر المشتركة، والعناصر الخاصة بهذا أو ذاك من الأشخاص، والتي تنال إجماع الجماعة. كذلك سجّل المداخل المختلفة للموضوع، أو الأساليب التعبيرية التي استعملتها وأشر إلى العناصر المتوافقة أو المتنافرة.

ج) يمكنك أن تنطلق من مقترحات شخص أو شخصين، مثلاً، لتكتب نصاً يحمل العناصر المشتركة والمداخل غير المتناقضة للبحث. ثم حاول أن تصوغ التناقضات باسلوبك الشخصي.

(٤)
يسوع المسيح
أو
واهب المعنى لمسيرتنا

لقد اجتهد اللاهوتيون في كل العصور على التعبير عن الخلاص الذي أعطي للإنسان بيسوع المسيح. وحاول القسم الثالث من هذا الكتاب أن يستعرض الصيغ المختلفة التي عبرت فيها الكنيسة عن هذا الخلاص وحاولت تقديمه بصورة قابلة للتصديق. وفيما تسترعي اهتمام معاصرينا المسائل الوجودية خاصة، ركز اللاهوتيون على المعنى الذي وضعه المسيح في وجودنا وفي وضعنا البشريين. ومن بين كل الشخوص الذين كان علينا ذكرهم في هذا الباب، نكتفي بتيار دي شاردان (١٨٨١-١٩٥٥)، والبير كامو (١٩١٣-١٩٦٠). ونضيف إليهما شهادة لاهوتي من لاهوتيي التحرير، جون سوبرينو، تبدو كجواب غير مباشر لطرح كامو.

• تيار دي شاردان
وحده يسوع المسيح بوسعه أن يقود المسيرة

في تساؤلاته عن "الإلحاد المعاصر" (١٩٣٣) رأى تيار دي شاردان أن سبب نبذ الإيمان هو القطيعة القائمة بين "الإيمان بالله" و "الإيمان بالعالم". ولكن هذا العالم لا يبدو لتيار دي شاردان "ملحداً جذرياً، أو لا دينياً"، حتى لو توجهت "طاقة السجود الطبيعية لديه" نحو الكون مؤقتاً، ومهما "يبدو في تناقض مع إله المسيحيين". ان "أفضل" ما ينتظره البشر لا يمكن أن يأتي إلا من المسيح. قال تيار دي شاردان:

"إذا صدق التحليل المذكور، أي إذا نسبنا الإلحاد المعاصر حقاً إلى نوع من تغييب "الله الموحى به" لحساب "إله - عالم"، فالواسطة **المباشرة** لإصلاح الشر الذي نعاني منه هي في ما يلي:

التأكيد على أن الكون، كما يعتلن لتصوراتنا الحاضرة، لا يعتّم على إله المسيحيين، ولا ينتظر هذا الكون سوى أن يجدده هذا الإله ويباركه. هل تريدون

أن يعود الإنسان إلى الله في التيار ذاته الذي أبعده عنه؟ إذن، لنوسع أرواحنا وقلوبنا، نحن أنفسنا، لفهم وجهات النظر والطموحات الجديدة لهذا الإنسان، كي نستوعبها، ومن ثم لننصّرها.

"لنبدأ بالاستيعاب: لنفحص ضمائرنا: ألم نبقى، نحن المسيحيين، غرباء عن الروح الإنسانية التي علينا العمل لخلاصها؟ (...) -ألم "ننتقص كثيراً جداً في مفهومنا الديني من فكرة الخطيئة والخلاص الشخصي؟"- ألا نبسط أمام الناس ظلال الصليب أكثر من أنواره؟...

"بالتأكيد ليس كل شيء فاسداً في تيار التفاؤل الاقتحامي الذي يوقظ الجماهير البشرية. لماذا نتحصن ضد هذا التيار؟ أليس الإنجيل خميرة يجب وضعها في قلب العالم؟ "لم آت لأهلك، بل لأخلّص".

ان التنصير هو نوع من الحرق. فللقيام بهذا التغيير لا يكفي التوقف لدى النقد الفكري أو السلبي وحده، بهدف القضاء على النظريات المادية الخاطئة، والنظريات المشركة الخاطئة. ان رسالتنا هي ان نُلبس العالم الحاضر نفساً دينية، بكل أبعادها الطبيعية، وأن نحياها على **الصعيد المسيحي** في الكمال والصدق. ان الطموحات الدينية للنظرية الإنسانية المعاصرة هي مبهمة كثيبة ولا تستند على شيء. فإلينا يناط أمر الشهادة، بالقول والمثل، وحقيقة المسيح الملموسة وحدها تدعم هذه الطموحات وتضعها على محاورها وتنال لها الخلاص. سيكون المسيحيون في مقدمة المسؤولين عن روحنة القيم الأرضية، بحكم مسيحيتهم ذاتها، وعن طريق أنشطتهم الإنسانية البناءة، وثراء تضحياتهم الفاعلة، وباندفاع تصوراتهم فائقة الطبيعة، وهكذا يتقدمون نحو المستقبل.. إذ ذاك يترع الإلحاد الأكثر خطورة سلاحه، حتى لو كان متخندقاً في أعماق النفس[٢٧].

• البير كامو
المستسلم الإلهي

كامو إنسان غير مؤمن، لذا كانت نظرته إلى العالم أقل تفاؤلاً. فلقد اصطدم خاصة بألم البريء وموته. وعندما ينظر إلى المصلوب، يعلن انه من غير الممكن أن يضع الله في قفص الاتهام، ولكنه يقول بأن المصلوب الذي قاسم الوضع

البشري بكامله، لم يغيّر هذا الوضع في الواقع. انه ضحية تضاف إلى غيرها، وتزرع شكاً إضافياً في صمت الله.

"لقد جاء المسيح ليحّل مشكلتين أساسيتين، هما مشكلة الألم ومشكلة الموت، وهاتان المشكلتان هما مشكلتا المتمردين تماماً. وكان الحل الذي وجده ان يحملهما على عاتقه، لذا تألم الإله الإنسان بصبر. فلا يمكننا من ثم ان نتهمه بالشر أو الموت، لأنه عانى التمزق والموت فعلاً. وإذا ما أعطي لليل الجلجلة كل هذه الأهمية في تاريخ البشر، فليس سوى لأن الآلوهة تخلت علناً عن امتيازاتها التقليدية في عتمة هذا الليل، وعاشت غصة الموت حتى النهاية وحتى اليأس. ان التراع أمر قابل الاحتمال لو سنده الرجاء الأبدي، ولكي يصبح الله إنساناً، كان عليه أن ييأس"[٢٨].

• إله نال المصداقية بالصليب

إذا كان الصليب شكاً إضافياً ليس إلا، بالنسبة إلى الملحد، فهو للمؤمن دليل كاشف عن إله ما كان اكتسب المصداقية لو لم يقاسم الإنسان حالته البشرية حتى الموت، موت الصليب (فيلبي ٢: ٦-١١). هذا ما يؤكده بقوة أحد لاهوتيي التحرير في أميركا اللاتينية، جون سوبرينو:

"ان عجز الله الذي ظهر فوق صليب يسوع (...)، يعطي المصداقية لقوة الله التي تجلت في القيامة، لأن عجز الله ما هو إلا تعبير عن قربه الشديد من الفقراء، ومقاسمته مصيرهم حتى النهاية. فإذا وُجد الله فوق صليب يسوع، إذا اختبر بشاعات التاريخ، إذ ذاك يكون عمله في القيامة قابلاً للتصديق، على الأقل بالنسبة إلى المصلوب. ان صمت الله على الصليب يحيّر العقل الطبيعي والعقل المعاصر، ولكنه ليس محيراً ومشككاً للمصلوب ذاته، لأن ما يهم المصلوب هو ان يعرف ان الله، هو أيضاً صلب على صليب يسوع. وإذا كان الأمر كذلك، فإن قربى الله من البشر قد وصلت ذروتها في الصليب بعد أن كانت قد ابتدأت في التجسد، واعتلنت وتحققت على يد يسوع طوال حياته. ان ما أفصح عنه الصليب بلغة بشرية، هو ان لاشيء في التاريخ يوقف تقرب الله من البشر"[٢٩].

NOTES :

(1) Claude GEFRE: L'historicité de Dieu ou le vrai scandal de la foi, Catéchèse No 76, Juillet 1979, p. 31

(2) أجرته وكالة Sofres في أيلول ١٩٨٦، ونشرت نتائجه في جريدة Le Monde عدد ١ سنة ١٩٨٦ وفي مجلة La Vie عدد ٢١٤٤ في ١- ٧ ت١ ١٩٨٦

(3) يجب أخذ هذه التعابير بذهنية الكتاب المقدس، ذهنية العهد القديم، ولا علاقة لها البتة بواقع السياسة والصهيونية اليوم (المعرب)

(4) Cahier "Evangile" No 3 انظر

(5) E. MORIN : L'événement de Jésus. Cerf 1978, p. 145

(6) J. DORE: "Les christologies patristiques et conciliaires" dans Initiation à la pratique de la théologie. T 2. Cerf 1982, p. 194

(7) W. KASPAR: Jésus, le Christ. Cerf 1976, p. 356-357.

(8) M.LIENHARD: Luther, témoin de Jésus-Christ. Les étapes et les themes de christologie du Réformateur. Cerf, 1973; D. OLIVIER: La foi de Luther. La cause de l'Evangile dans l'Eglise. Beauchesne 1978, ch. 5

(9) L.FUERBARCH : L'essence du Christianisme. Maspero 1968, préface de la 2ème éd.

(10)) J. DORE : art. Schleiermarcher, Dict. Des Religions, PUF, 1984, p. 547

(11) P.CORSET: "Une Aufklarung à la lumière de l'Evangile, K. Barth". Recherches, 1984, p. 483-526, 495

(12) Cf Karl BARTH : Esquisse d'une dogmatique. Genèvem Labor et Fides, Cerf 1984, p. 101

(13) Cf Marcel NEUCH: Aujourd'hui Dieu. DDB 1987, p. 85-88

(14) W.PANNENBERG: Esquisse d'une christologie. Cerf 1971, p. 26

(15) D. WIEDERKEHER: Esquisse d'une christologie sutématique, in Mysterium Salutism XI. Cerf 1975 ,p. 123-125

(16) B. REY: Les tentations et le choix de Jésus. Cerf 1986

(17) ان المفاهيم الرئيسة التي صاغت مفردات فكرة الخلاص المسيحي تجدها بصورة منظمة في
B. SESBOUE: Notes sur la théologie de la Rédemption, Doc. Episcopat, No 18, Dec 1083
(18) J.N. BEZANCON: Dieu sauve. DDB 1985, réédité 1987, ch. 5
(19) H. TURNER: Jésus le Sauveur. Essai sur la doctrine patristique de la Rédemption. Cerf 1965
(20) P. VALADIER: Jésus-Christ ou Dyonisos. La foi chrétienne en confrontation avec Nietzsche. Desclée 1979, p.101
(21) A. SCHENKER: Substitution du châtiment ou prix de la paix?, p. 88
(22) J. SOBRINO: La mort de Jésus et la libération dans l'Histoire, in Jésus et la libération en Amérique Latine. Coll. Desclée 1986, p. 275
(23) J. DELUMEAU: Le péché et la culpabilité en Occident (XIII-XVIII s.). Fayard 1981, p. 331-338
(24) St AUGUSTIN: Sermon 341,9
(25) LUMEN GENTIUM, Vatican II,. Centurion, p. 20
(26) St AUGUSTIN: Contra Cresconium, X, 13
(27) Science et Christianisme, Oeuvre de Pierre Theillard de Chardin, No 9, Seuil 1965, p. 152-153
(28) L'homme révolté. Gallimard 1951, p. 40.
(29) Le Ressuscité est le Crucifié, Lecture de la Résurrection de Jésus à partir des crucifiés du monde, in Jésus et la libération en Amérique Latine (coll.), Desclée 1986, p. 298-299

الفهرست

كلمة الناشر	٧
تقديم المعرب	٩
مقدمة	١٣
الفصل الأول: "وقد رأينا مجده" /الخبرة الفصحية للرسل	**٢١**
أولاً: زمن الوعود	٢٧
١. اسمع يا إسرائيل	٢٧
٢. يفتدي من الهوة حياتك	٢٨
٣. زمن موسوم بالأزمة	٣٠
ثانياً: زمن يسوع	٣٠
١. ملكوت الله بينكم	٣١
٢. ادعاءات يسوع	٣٣
٣. من يكون يسوع، إذن؟	٣٦
٤. رجاء يسوع	٣٨
ثالثاً: معرفة المصلوب	٣٩
١. مقومات الخبرة الفصحية	٣٩
٢. الآثار التاريخية للقائم من القبر	٤٢
رابعاً: البشرى الفصحية	٤٥
١. اليوم الثالث، أو زمن الروح	٤٥
٢. وصعد إلى السماء	٤٦
٣. سيأتي ليدين الأحياء والأموات	٤٧
الفصل الثاني: أيقونة الله غير المنظور / الإيمان بيسوع، ابن الله	**٥١**
أولاً: إيمان الكنيسة	٥٤
١. من أورشليم إلى نيقية	٥٤

أ. الشهادة الرسولية ٥٤
ب. الثقافة اليهودية والثقافة اليونانية ٥٧
ج. إيمان نيقية (٣٢٥) ٦٢
٢. المجامع الكريستولوجية ٦٤
مجمع أفسس ٦٤
مجمع خلقيدونية ٦٥
مجمع القسطنطينية الثاني ٦٨
مجمع القسطنطينية الثالث ٦٨
ثانياً: التقليد موضوع معارضة ٧٠
١. باسم الكتاب المقدس (لوثر) ٧٠
٢. باسم العقل (القرن ١٨-١٩) ٧٢
ثالثاً: بحوث معاصرة ٧٨
١. طرائق علم اللاهوت الكريستولوجي ٧٨
٢. الكيان البنوي ليسوع ٨٢
٣. الفعل البنوي عند يسوع ٨٥

الفصل الثالث: "المسيح المصلوب" / الله يخلصنا بيسوع المسيح ٩١
أولاً: المصالحة ٩٣
١. يسوع، طريق الله إلى البشرية ٩٤
٢. يسوع، طريق البشرية إلى الله ٩٦
٣. هذا الذي يصالحنا ٩٧
ثانياً: الفداء ٩٨
١. مات من أجل خطايانا ٩٨
٢. مرة واحدة ٩٩
٣. باسمنا ١٠١
ثالثاً: الوحي ١٠٦
١. الابن المتروك ١٠٧

٢. صمت الله ١٠٨
٣. يسكن الله في الألم ١٠٩

الخلاصة: المسيح حي، كيف نلتقي به ١١٣
١. الكتاب المقدس ١١٦
٢. الوعظ ١١٦
٣. الأسرار المقدسة ١١٧
٤. الكنيسة، جسد المسيح ١١٧
٥. الخدم الكهنوتية ١١٨
٦. الصلاة ١١٨
٧. كل وجه بشري ١١٩

ملحقات: ١٢١
(١) بالنسبة لي من هو يسوع المسيح؟ ١٢٣
(٢) إنسانية المسيح والخلاص ١٢٤
• ايريناوس: إنسان لخلاصنا ١٢٤
• لوثر: التضامن مع البشر لإظهار حب الآب ومصالحة الإنسان معه ١٢٥
(٣) التحدث بكلماتنا عن الخلاص ١٢٦
(٤) يسوع المسيح أو واهب المعنى لمسيرتنا ١٢٨
• تيار دي شاردان: وحده يسوع المسيح بوسعه أن يقود المسيرة ١٢٨
• البير كامو: المستسلم الإلهي ١٢٩
• إله نال المصداقية بالصليب: جون سوبرينو ١٣٠
الهوامش ١٣١
الفهرست ١٣٣

كتب للمعرب

تأليف

١. ايدل كوين (الموصل ١٩٦٣)
٢. شارل دي فوكو رسول الأخوّة الشاملة (بيروت ط١ ١٩٦٨، ط٢ ١٩٩٢)
٣. رسالة الأخ شارل إلى بني جيلنا (بغداد ــ حلب ١٩٧٨)
٤. المسألة الدينية في المجتمع العربي ــ أطروحة ماجستير بالفرنسية (لوفان ــ بلجيكا ١٩٧٩)
٥. همسات أبو فادي (بغداد ١٩٨٥)
٦. حياتي هي المسيح ــ رسالة راعوية (الموصل ٢٠٠٠)
٧. الأسرة المسيحية ــ رسالة راعوية (الموصل ٢٠٠٢)

تعريب

١. نداء الأبطال (بيروت ١٩٦٧)
٢. اخوتي جميع البشر (بيروت ط١ ١٩٧١، ط٢ ١٩٩٢، ط٣ ١٩٩٦)
٣. طريق الصلاة مع الأخ شارل (لبنان ط١ ١٩٨٤، ط٢ ١٩٩٨)
٤. بحثت ووجدت (بغداد ١٩٨٦)
٥. روح الطفولة طريق الملكوت (لبنان ١٩٨٦)
٦. على دروب الناصرة (بيروت ١٩٩٧)
٧. إيليا واليشاع (الموصل ٢٠٠١)
٨. حزقيال النبي (الموصل ٢٠٠٢)
٩. يونان (الموصل ٢٠٠٣)
١٠. لماذا يا رب؟ لغز الألم (بغداد ٢٠٠٣)
١١. اشعيا النبي (الموصل ٢٠٠٦)
١٢. الكنيسة التي ورثناها عن الرسل (الموصل ٢٠٠٥)
١٣. اشعيا وتلاميذه (الموصل ٢٠٠٧)

إعداد وتقديم

١. كتاب يوبيل دير مار بهنام (بغداد ١٩٨٤)
٢. دليل أبرشية الموصل للسريان الكاثوليك (الموصل ٢٠٠٢)
٣. القداس السرياني (بغداد ٢٠٠٣)

تحت الطبع

١. افتتاحيات الفكر المسيحي (مشترك)
٢. همسات ابو فادي الجزء ٢

سلسلة أبحاث كتابية

تصدر عن مركز الدراسات الكتابية في الموصل (العراق) لتمكن القراء من الدخول إلى عالم الكتاب المقدس وفق منهج علمي رصين وتوجه راعوي أصيل.
سلسلة كتب، مؤلفة أو معربة، تسهم في جعل كلمة الله المدونة سهلة المنال، عذبة المذاق. وترسخ أسس الوحدة في قلب الكنائس المسيحية التي تقرأ الكتاب لتتغذى منه وتشهد له...

ظهر منها:

١. قراءة مجددة للعهد الجديد / تأليف: الأب بيوس عفاص / بغداد ١٩٩٩

٢. يسوع الذي من الناصرة / تأليف الأب ماري _ اميل بوامار
تعريب: الأب بيوس عفاص / بغداد ٢٠٠٢

٣. قراءة في العهد القديم / ج١: قبل الجلاء
تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس
تعريب: الأب بيوس عفاص / بغداد ٢٠٠٣

٤. قراءة في العهد القديم / ج٢: من الجلاء إلى يسوع
تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس
تعريب الأب بيوس عفاص / بغداد ٢٠٠٤

٥. قراءة في العهد الجديد / ج١: الأناجيل الأربعة
تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس
تعريب: الأب بيوس عفاص / بغداد ٢٠٠٤

٦. قراءة في العهد الجديد / ج٢: أعمال الرسل، الرسائل، الرؤيا
تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس
تعريب: الأب بيوس عفاص / بغداد ٢٠٠٤

٧. الكنيسة التي ورثناها عن الرسل / تأليف: ريموند براون
تعريب: المطران جرجس القس موسى / بغداد ٢٠٠٥

٨. لوقا الأعمال / وعد التاريخ / تأليف: دونالد يوئيل
تعريب: الأب البير أبونا / بغداد ٢٠٠٦

٩/١٠. روايات الآلام والقيامة / تأليف: الأب بيير بنوا الدومنيكي
تعريب: الأب بيوس عفاص / بغداد ٢٠٠٦

١١. يسوع الذي هو المسيح / تأليف: برنار راي
تعريب: المطران جرجس القس موسى / بغداد ٢٠٠٧

سيظهر:

من أجل إيمان جاد / تعريب: الأب ألبير أبونا

تطلب من مكتبة بيبليا: كنيسة مار توما / الموصل–العراق

سلسلة ابحاث كتابية ١١

يسوع الذي هو المسيح

تعريب : المطران جرجس القس موسى

أن يواجهك اسم يسوع
في عتبة دخولك مرحلة التنشئة المسيحية
أمر طبيعي جدا ! .
هذا الكتاب يقدم لك صدى جميع من تلفظوا
باسم يسوع.
إذا فتح مسمعيه للشهود الأولين ولتقليد الكنيسة،
فلأنه يريد أن يقودك إلى
تجديد معرفتك بهويته الحقيقية.
ماذا يعني هذا الاسم الذي يقول عنه
الكتاب بأن "لا اسم بديل عنه للخلاص" ؟
وما هي خبرتنا الذاتية اليوم عن يسوع الناصري
الذي لا يزال المسيحيون يعلنون عنه بأنه حي ؟

(المؤلف: برنار راي راهب دومنيكي اختصاصي في علم الكريستولوجيا، أي علم اللاهوت الذي يبحث في شخص المسيح؛ مدرس اللاهوت في المعهد الكاثوليكي في مدينة ليل (فرنسا). من كتبه: يسوع المسيح طريق إيماننا؛ تجارب يسوع واختياره.

(المعرب: المطران جرجس (القس موسى رئيس أساقفة الموصل للسريان الكاثوليك. من جماعة كهنة يسوع الملك. أستاذ العهد القديم في الدورة الكتابية-مركز الدراسات الكتابية-الموصل.

سعر النسخة (٣٠٠٠) دينار
يطلب من مكتبة بيبليا - الموصل - العراق
الديوان للطباعة والتصميم موبايل ٠٧٩٠١٩٢٠٤١٤